



كتاب الهدى

عقريه محمد

تأليف

عباس محمد العقاد



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهدى



كتاب الهدى

مجلة شهرية تصدر عن «دار الهلال» شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكري زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١ - يونيه ١٩٥١ - رمضان ١٣٧٠

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك - القاهرة

المكتبات

كتاب الهلال - بوسنة مصر العمومية - مصر

التليفون : ٧٩٨١٠ (تسعة خطوط)

الاشتراكات

اهداءات ٢٠٠١

والسودان

سورية

١ قروش

سائر

٣ شلنا

الأستاذ الدكتور / محمد الفتاح منصور

عبقريّة محمد

تقدير لعبقرية النبي العربي محمد (ص)
بالمقدار الذي يدين به كل انسان ، وبالحق
الذي يثبت له الحب في قلب كل انسان . .

تأليف

عباس محمود العقاد

دار النهضة العربية

هذه الطبعة الجديدة

بقلم المؤلف

يظهر هذا الكتاب — كتاب عبقرية محمد — في هذه الطبعة الشعبية الأنيقة التي هي طبعته الرابعة منذ صدوره في أثناء الحرب العالمية

وأسميها بالطبعة الشعبية الأنيقة على ما في الجمع بين هذين الوصفين من التناقض الظاهر ، لأن الناس قد ألفوا من وصف « الشعبية » أن يتناول الأشياء التي تعوزها الأناقة والعناية ، ويرجع فيها جانب المنفعة والاستعمال على جانب الدقة والجمال . ولكن الواقع أن هذه الطبعة شعبية وأنيقة في وقت واحد ، ولا توصف بالشعبية إلا لأنها في متناول الجميع . وتلك هي المزية التي تقدر عليها دار كدار الهلال ، توافر لها من تمام الأبهة الفنية ما يسر لها أن تضيف حلية الأناقة والجمال على مطبوعات زهيدة الثمن في متناول جميع القراء ، على اختلاف درجاتهم من اليسار

ومن سمة العصر التي تقترب بالحرية وشيوع المعرفة أو

المساواة بين الناس في طلبها وتحصيلها ، أن تبتدع فيه أمثال هذه الطبقات العامة الى جانب الطبقات الخاصة أو الغالية . . فلا يحال بين طالب المعرفة وبين الكتاب الذي يريده لنقص في موارد رزقه ، ولا تصبح المعرفة والمال حكرا مقصورا على طبقة دون طبقة أو قارىء من الاغنياء دون قارىء من الفقراء ، بل تقترب المعرفة الى كل يد وكل طاقة . وتتم المساواة المحمودة اذا كان رخص الكتاب لا يحرم قارئه من متعة الاتقان في صناعة الطبع والاصدار

وليس أحب لى - وأنا مؤلف هذا الكتاب - من أن تتكفل دار الهلال بنشره في ميدانها الواسع الذى تمتد أطرافه الى قراء العربية على اختلاف المطالب والمشارب والنزعات . فاذا كان للرغبة فى الاطلاع عليه بقية ، فهى ولا ريب فى نطاق هذا الميدان البعيد الاماد . وأحسبه على هذا الاعتبار كالكتاب الجديد الذى يظهر للمرة الاولى بالنظر الى الكثيرين من القراء الذين يقصدهم المؤلفون فى كل موضوع ، وفى هذا الموضوع على التخصيص



قلت فى مقدمة طبعته الثالثة : « يجب على - ولا أقول يحق لى وحسب - أن لاحظ فى شىء كثير من الرضى أن تدعو الحاجة الى إعادة طبع هذا الكتاب للمرة الثالثة قبل أن تنقضى عشرة أشهر على صدور طبعته الاولى . . ففى ذلك دليل على حاجة عقلية أو نفسية وافقناها بين قراء الأقطار العربية . ويسرنى أن أعلم من رسائل القراء وأحاديثهم أنها

حاجة عقلية تشترك فيها فئات كثيرة من قرائنا ولا تقتصر على فئة واحدة ، فمنهم المسلمون وغير المسلمين ، ومنهم طلاب الموضوعات الدينية وطلاب غيرها من الموضوعات ، ومنهم قراء البحوث والعلوم وقراء الآداب والفنون ، ورأيهم الشائع بينهم والواضح من رسائلهم وأحاديثهم ان الكتاب قد وافق ما ينتظرون أو وافق ما يحمدون من أمثاله ، وان كان بعضهم يقترح فيه مزيدا هنا ومزيدا هناك ، فيدل إقتراحه على استزادة لما راقه واستكثارا مما حسن عنده ، قبل ان يدل على انتقاد »

وقد تبينت من تجربتي في كتاب «عبقريّة محمد» وتجاربي في غيره من الكتب التي يتداولها القراء عندهنا وعند الأمم الأخرى ان للقراءة في زماننا هذا جامعات لم تكن معهودة في الأزمنة الماضية . ونعني هنا بالجامعة كل وحدة تجمع طوائف القراء على مطلب واحد من مطالب الدرس والاطلاع . والجامعة الكبرى للقراءة في زماننا هذا لا تتألف من محبي التاريخ دون غيره ، أو من محبي الدراسة الاجتماعية بهذه الصفة وحدها ، أو محبي الفن أو الفلسفة وما إليها . ولكنها تتألف من هؤلاء جميعا حيث يتفقون في الإيمان « بمثل أعلى » للإنسان يعلو على حياته الجسدية وشواغله الموقوتة ويربط بينه وبين الكون بعقيدة باقية ، سواء تمثل له ذلك المثل الأعلى في الدين أو الوطن أو البطولة أو الأشواق الروحية على تعدد سبلها . فهذه الجامعة « القرائية » التي نحسبها ناشئة في عصرنا تقسم المطالعة الى قسمين شاملين : قسم الإيمان بالمثل الأعلى الذي يعلو على الحياة الجسدية ، وقسم الإيمان بهذه الحياة الجسدية دون سواها ، فلم يكن عجبا أن

نرى - كما قلنا في مقدمة الطبعة الثالثة - أناسا غير مسلمين يرحبون بعبقريّة محمد ، وأناسا غير متدينين يستروحون أنفاس البطولة من سيرة ذلك الرسول العظيم ، وأناسا غير قراء التاريخ ودراساته يجدون في الكتاب معنى يزيد على جوانبه التاريخيّة ، فان قراء عصرنا يتفرقون في المشارب ثم يجتمعون جملة واحدة الى هذه الجامعة « القرائيّة » الجديدة أو الى هاتين الجامعتين المتقابلتين على قطبي الحياة المعاصرة . . وهما جامعة المثل الأعلى ، وجامعة المطالب الجسدية ، ولعلهما تقابلان فيما مضى ما أطلقوه ولا يزالون يطلقونه على الروحانية من جانب ، والمادية من الجانب الآخر



الى هذه الجامعة أقدم هذه الطبعة من « عبقرية محمد » ، ويطيب لى أن أعتقد أن تيسيرات دار الهلال خليفة أن تبلغها الى أيد كثيرة لم تصل اليها من قبل ، وأن تجند للقراءة على العموم جيشا قائما وافر العدة يسطر سلطان المعرفة على أوسع الآفاق

عباسي محور العقاد

مقدمة

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة ، الى اليوم الذى سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام وكنت أقيم يومئذ في ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التى كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوى في كل عام

ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين بالأدب يشتركون في قراءة كتبه العربية والافرنجية ، ويتدردون معا على الأحياء الوطنية وقلمما يترددون على غيرها . فلا يزالون متنقلين فترة بعد فترة بين الحى الحسينى والحى الزينبى ، أو بين منشية القلعة وضاحية العباسية ، أو بين الروضة والخليج . . على حسب المناسبات ، وعلى غير مناسبة في كثير من الأوقات وكان رهطا له نقائض الدنيا مجتمعات : نقائض الشباب ، ونقائض الحياة الفنية ، ونقائض الاختلاف في البيئة بين ناشئ في العاصمة وناشئ في الريف وناشئ في الصعيد وناشئ في الثغور ، الى غير ذلك من النقائض التى كانت حلية لهذه الجماعة ، ولم تكن فيها من دواعى التفرق والشتات ومن عجائبها أن الذى كان يغريها بالأحياء الوطنية هو قراءتها في الكتب الافرنجية التى كانت شائعة بينها ، لأنهم كانوا يقرأون أكثر ما كانوا يقرأون كتب «دكنز» و «هازليت»

و « لى هانت » و « كارليل » . . وهم كتاب مولعون بعرض
الاخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين
والحضرين في أوضاعهم المختلفة ، ولهم فصول عن الأسواق
والدكاكين والباعة تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة
ومتعة القراءة ، وتعود من يدمن قراءتها أن يتحرى نظائرها
حيثما رآها



ففى يوم من أيام المولد - والرهط يزورنى لنؤم الساحة
مجمعين فى المساء - كان الكاتب الانجليزى العظيم توماس
كارليل هو محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون بين
قراء العربية صاحب كتاب الأبطال الذى عقد فيه فصلا عن
النبي محمد عليه السلام ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين
أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل

وانا لنتذاكر آراءه ومواضع ثنائه على النبى ، اذ بدرت
من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية غضبنا لها
واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء
الطوية . وكان الفتى الذى بدرت منه الكلمة متحذقا يتظاهر
بالمعرفة ، ويحسب أن التناول على الأنبياء من لوازم الاطلاع
على الفلسفة والعلوم الحديثة . . فكان مما قاله شىء عن النبى
والزواج ، وشىء عن البطولة ، فحواه أن بطولة محمد انما هى
بطولة سيف ودماء !

قلت : « ويحك ! . . ما سوغ أحد السيف كما سوغته
انت بهذه القولة النابية ! »

وقال صديقنا المازنى : « بل السيف اكرم من هذا ، وانما
سوغ صاحبنا شيئا آخر يستحقه . . وأشار الى قدمه ! »

وارتفعت لهجة النقاش هنية ، ثم هدأت بخروج الفتى

صاحب الكلمة من الندى ، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول ، أو خيل إليه أنه مقبول

وتساءلنا : ما بالناس نقنع بتمجيد كارليل للنبي ، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ولا يعرف الاسلام كما نعرفه . ثم سألتني بعض الاخوان : « ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد على النمط الحديث ؟ »

قلت : « افعل . . وارجو أن يتم ذلك في وقت قريب » ولكنه لم يتم في وقت قريب . . بل تم بعد ثلاثين سنة ! وشاءت المصادفة العجيبة أن تتم فصوله في مثل الايام التي سمعت فيها الاقتراح لأول مرة . . فكتبت السطر الاخير فيه يوم مولد النبي على حسب الشهور الهجرية ، واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير مني ولا من أحد ، لأنني لم أدبر لنفسي أوقات الفراغ التي هيأت لي اتمام فصوله وتقسيم العمل فيه يوما بعد يوم

والخيرة في الواقع . .

والخيرة كذلك في هذا التأخير . .

فأننى لو كتبته يومئذ لعدت الى كتابته الآن من جديد ، واحتجت الى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية الى محصول ذلك العمر الباكر . . اذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلىء فيه اعجابا بمحمد ، لأنه عمر الاعجاب والحماسة الروحية . بيد انه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره في مثل تجاربه ، وفي مثل السن التي اضطلع فيها بالرسالة . وان تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين ؟

انها مسافات في عالم الفكر والروح . . لو تمثلت مكانا

منظورا ، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر
بغير قرار

كم رأى ؟ . . كم مذهب ؟ . . كم وسواس ؟ . . كم محنة ؟ . .
كم مراجعة ؟ . . كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه
الدعائم والأركان ؟ . . كم وكم فى ثلاثين سنة مما يطرق نفسا
لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض لمحنة عين فى نهار ؟ . .
وكم لذلك كله من أثر فى توطيد الرأى وتهذئة الثوائر وتجلية
الغبار ؟ . . وكم يضيف ذلك كله الى الشباب الباكر الذى
كان يحلم يومئذ بالعظمة فى كل أوج ، وبالأوج المحمدى فى
عليا مراتب الأنبياء ؟

الخيرة فى الواقع . .

والخيرة فى ذلك التأخير . .

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن « عبقرية محمد » بين
يدى القراء ، لا نقول اننا قد استوفيناه كما أردناه ولا أننا
فصلنا فيه الغرض الذى توخيناه . . ولكننا نقول اننا التزمنا
فيه الباعث الذى أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة . كأننا
شرعنا فى كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة ، فكتبناه
ونحن نستحضر فى الدهن تبرئة المقام المحمدى من تلك
الأقاويل التى يلفظ بها الأغرار والجهلاء عن حذقة أو سوء
نية ، ونظرنا اتفاقا ، فاذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان
شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية . .
لأنهما كانا مثار اللفظ تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد ،
وكانا مثار اللفظ فى كل ما رددده سفهاء الشائئين من الأصلاء
والمقتدين فى هذا الباب

فسيرى القارىء أن « عبقرية محمد » عنوان يؤدى معناه
فى حدوده المقصودة ولا يتعدها . فليس الكتاب سيرة نبوية
جديدة تضاف الى السير العربية والافرنجية التى حفلت بها
« المكتبة المحمدية » حتى الآن . . لأننا لم نقصد وقائع السيرة

لذاتها في هذه الصفحات ، على اعتقادنا أن المجال متسع
لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع ، ثم لا يقال أنه يستنفد
كل الاستنفاد

وليس الكتاب شرحا للإسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا
عنه أو مجادلة لخصومه .. فهذه أغراض مستوفاة في مواطن
شتى ، يكتب فيها من هم ذويها ولهم دراية بها وقدرة عليها
إنما الكتاب تقدير « لعقريّة محمد » بالمقدار الذي يدين به
كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذي يثبت له
الحب في قلب كل إنسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى
فمحمد هنا عظيم .. لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي
يتمناها المخلصون لجميع الناس ..
عظيم لأنه على خلق عظيم ..

وإتباع العظمة حقها لازم في كل آونة وبين كل قبيل ..
ولكنه في هذا الزمن وفي عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى ،
لسببين متقاربين لا لسبب واحد : أحدهما أن العالم اليوم
أحوج ما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب
كافة .. ولن يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق ،
معرض للجفوة والكنود

والسبب الآخر أن الناس قد اجتروا على العظمة في
زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها .. فان شيوع الحقوق
العامة قد أغرى أناسا من صنفار النفوس بإنكار الحقوق
الخاصة ، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز
وتظلمهم المساواة .. والمساواة هي شرعة السواد الغالبة في
العصر الحديث

ولقد جار هذا الفهم الخاطيء للمساواة على حقوق العظماء
السابقين ، كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين .
ثم أغرى الناس بالجور بعد الجور غرورهم بطرائف العصر

الحديث ، واعتقادهم أنه قد أتى بالجديد الناسخ للقديم في كل شيء .. حتى في ملكات النفوس والأذهان ، وهى مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم

يرون أن البخار يلغى الشراع ، وربما كان الاختراع السابق ادل على القدرة وأبين عن الفضل من الاختراع الذى تلاه ، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه

وينظرون الى اقطاب الدنيا كأن الأصل فى النظر اليهم أن يتجنوا عليهم ويثلبوا كرامتهم ، ولا يثوبوا الى الاعتراف لهم بالفضل الا مكرهين ، بعد أن تفرغ عندهم وسائل التجنى والثلب والافتراء

هذه الآفة تهبط بالخلق الانسانى الى الخضيض .. وتهبط بالرجاء فى اصلاح العيوب الخلقية والنفسية الى ما دون الخضيض ..

فماذا يساوى انسان لا يساوى الانسان العظيم شيئاً لديه ؟ وأى معرفة بحق من الحقوق يناط بها الرجاء اذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف ؟ .. واذا ضاع العظيم بين أناس ، فكيف لا يضيع بينهم الصغير ؟

لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذى يفهمه المعاصرون ويتساوى فى اقراره المسلمون وغير المسلمين ، نافعا فى هذا الزمن الذى التوت فيه مقاييس التقدير

انه لنافع لمن يقدرون محمداً ، وليس بنافع لمحمد ان يقدروه .. لأنه فى عظمتة الخالدة لا يضار بابتكار ، ولا ينال منه بغى الجهلاء الا كما نال منه بغى الكفار

وانه لنافع للمسلم أن يقدر محمداً بالشواهد والبيّنات التى يراها غير المسلم ، فلا يسعه الا أن يقدرها ويجرى على مجراها فيها .. لأن مسلماً يقدر محمداً على هذا النحو يحب محمداً مرتين : مرة بحكم دينه الذى لا يشاركه فيه غيره ، ومرة

بحكم الشماثل الانسانية التى يشترك فيها جميع الناس
وحسبنا من « عبقرية محمد » أن نقيم البرهان على أن
محمدا عظيم فى كل ميزان : عظيم فى ميزان الدين ، وعظيم فى
ميزان العلم ، وعظيم فى ميزان الشعور ، وعظيم عند من
يختلفون فى العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية ،
آلا أن يرين العنت على الطبائع فتتحرف عن السواء وهى
خاسرة بانحرافها ، ولا خسارة على السواء



ان عمل محمد لكاف جد الكفاية لتحويله المكان الأسنى من
التعظيم والاعجاب والثناء ..

انه نقل قومه من الايمان بالأصنام الى الايمان بالله ، ولم تكن
أصناما كأصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال أن
فاته أن يحسب له هدى الضمير . ولكنها أصنام شائعات
كتعاويد السحر التى تفسد الأذواق وتفسد العقول . فنقلهم
محمد من عبادة هذه الدمامة الى عبادة الحق الأعلى .. عبادة
خالق الكون الذى لا خالق سواه ، ونقل العالم كله من ركود
الى حركة ومن فوضى الى نظام ، ومن مهانة حيوانية الى
كرامة انسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من
أصحاب الدعوات

ان عمله هذا لكاف لتحويله المكان الأسنى بين صفوة
الأخيار الخالدين ، فما من أحد يضمن على صاحب هذا العمل
بالتوقير ثم وجود بالتوقير على اسم انسان

آلا أننا نمضى خطوة وراء هذا ، حين نقول ان التعظيم
حق لعبقرية محمد ولو لم تقترن بعمل محمد ..

لأن العبقرية قيمة فى النفس قبل أن تبرزها الاعمال
ويكتب لها التوفيق ، وهى وحدها قيمة يغالى بها التقويم ..

فإذا رجح بمحمد ميزان العبقرية ، وميزان العمل ، وميزان
العقيدة . . فهو نبي عظيم وبطل عظيم وانسان عظيم
وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بنانا تومىء الى تلك
العظمة فى آفاقها ، فان البنان لأقدر على الاشارة من الباع
على الاحاطة ، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير . .

عباسي محمود المنار

علامات مولد

عالم

كان عالما متداعيا قد شارف النهاية .. خلاصة ما يقال فيه انه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام ..

أى أنه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر .. طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون الى قوة فى الغيب ، تبسط العدل ، وتحمى الضعف ، وتعزى الظلم ، وتختار الأصلح الأكمل من جميع الأمور

وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون الى دولة تقضى بالشرعية ، وتفصل بين البغاة والأبرياء ، وتحرس الطريق ، وتخيف العائثين بالفساد

بزنطة قد خرجت من الدين الى الجدل العقيم الذى أصبح بعد ذلك علما عليها، وتضاءلت سطوتها فى البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتذى بجوارها

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس .. وكننت حول عرشها كوامن الغيلة ، وبواعث الفتن ، ونوازع الشهوات

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة ، وبين التوحيد الذى هو ضرب من عبادة الأوثان .. ثم هى بعد هذا التشويه فى الدين ، ليست بذات رسالة فى الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ .. فليس لها عمل باق فى سجل الأعمال الباقيات

عالم يتطلع الى حال غير حاله .. عالم يتهيا للتبديل أو للهدم ثم للبناء

أمة

وبين هذه الدول المتداعيات ، أمة ليست بذات دولة ولكنها تتأهب لاقامة دولة . . هي أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها

في أيديها تجارة العالمين كلها . .

فاذا سارت القوافل من خليج فارس الى بحر الروم، فهي تسير في البادية بين حراس من العرب لا سلطان عليهم للدول المتداعية . . أو هم قد شعروا بذلك السلطان حيناً في ابان الصولة الرومانية والصولة الفارسية ، ثم علموا أنهم مالكون لزمائم يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق ، ويغضبون فتبور التجارة وينضب المورد وتكسد الأسواق

واذا سارت القوافل من اليمن الى الشام أو من بحر القلزم الى بحر الروم ، فهي في جيرة الأعراب من كلتا الطريقين أمة تيقظت لوجودها ، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها . .

ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجورون عليها ، ويريدون اخضاعها وابتلاعها . .

فهرقل الرومي يرسل الى مكة من يحكمها ، وأبرهة الحبشي يزحف الى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها ، وفارس تطفئ على شرق البلاد وعلى جنوبها . .

خطر من خارجها ، يزيد الأمة يقظة وانتباها لوجودها . .

وخطر من داخلها ، يدفع بها دفعا الى الزوال او الى استكمال النقص المستشري في حياتها . .

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة ، وعصبة واحدة
من سادة القوم تجتمع في أيديها ثروة المدينة ..
حالة لا استقرار فيها ..

فمن هذا الترف ، والطمع ، والخمر ، والقمار ، والمتعة ،
وتسخير الأقوياء للضعفاء ..
ومن هنا الفاقة ، والحسرة ، والشك في صلاح الأمور ..
ولكنه شك يبحث ويضطرب ، وليس بالشك الذي يستجم
ويستكين

فحيثما اجتمع أناس من أولى الرأي يذكرون العقيدة
وطمانينة الضمير ، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه .
اجتمع أناس بنخلة لاحياء عيد العزى فقال رجل منهم
لأخوانه : « والله ما قومكم على شيء وانهم لفي ضلال ..
فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ،
ومن فوقه يجري دم النحور . يا قوم التمسوا لكم ديناً غير
هذا الدين الذي أنتم عليه » .. ثم تفرقوا ، فمنهم من تنصر ،
ومنهم من اعتزل الأوثان ، ومنهم من انتظر حتى سسمع
دعوة الاسلام فلباها .. وكان الذي تنصر وسمع دعوة
الاسلام ورقة بن نوفل الذي كتب له أن يتلقى بشارة النبي
العربي عند ظهوره ويلقى اليه بالبشارة

هؤلاء شكوا وبحشوا عن العقيدة وطمانينة الضمير ..

وغيرهم شكوا وبحشوا عن وازع من الضمير ، ووازع من
السلطان . فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم
الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدي اليه حقه . وذلك
حلف الفضول الذي شنهده النبي العربي في شبابه وقال
فيسه : « ما أحب أن يكون لي بحلف حضرته في دار ابن
جدعان حمر النعم »

حالة لا تستقر ، ولا تزال في طلب الاستقرار ..

وأمة يقظى ! ..
وخطر محقق بها مما حولها ، ومما هو فى دخالها
وأحشائها ..

حالة تنذر بالزوال ، وقلمما تزول أمة يقظى فى أوان
انتباهها .. فتلك أذن حالة للتبديل والتجديد

قبيلة

وقبيلة فى تلك الأمة ، فى تلك المدينة .. لها شعبتان :
أحدهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو
قائم كما كان قائما على هواها
والأخرى من أصحاب التقوى والسباحة والتوسط بين
مقام القوى الذى يجور ويظفئ ويستبقى أداة الجور
والطفیان ، ومقام الضعيف الذى يحتمل الأذى ويصبر على
الكريهة ولا يملك مع السيد الأمر إلا أن يدعن له ويأكل من
فضلات يديه

بيت

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق
وليس له لؤم الثروة الجائحة والكبرياء الجائحة ، والقسوة على
من دونه من المحرومين

ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها
العليا ، وان لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية فى
ذلك الأوان ..

ورأس هذا البيت - عبد المطلب - رجل قوى الخلق قوى
الايان فيما آمن به ، حكيم مع قوة طبعه وشدة ايمانه ، خليق
أن ينجب العقب الذى يشر بدعوة وينضح عن دين

نذر لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة . .
ثم أحله قومه وأحلتها العرافة من نذره ، فأبى أن يتحلل حتى
يستوثق من رضى الرب ورضى ضميره . سألتهم العرافة :
« كم الدية فيكم ؟ » قالوا : « عشر من الابل » قالت :
« فتقربوا اذن بعشر من الابل واضربوا على الفتى وعليها
بالقداح . . فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى
يرضى ربكم » فما زالوا يزيدون حتى بلغت الابل مائة
وخرجت القداح عليها . فهتفت قريش بعبد المطلب : « لقد
رضى ربك . . فاطلق فتاك » . وكان خليقا بمن يريد أن
يتحلل ويتعلأ أن يقبل ولا حرج عليه ، ولكن عبد المطلب لم
يكن من المتحللين المتعللين ، فأبى إلا أن يضرب عليها القداح
ثلاث مرات ، ثم نحرت الابل للجياح من الأناسى والسباع

وجاء القائد الحبشى يهدم الكعبة ويسطو على الابل
والشاء . . فلما سأله عبد المطلب أن يرد إليه ابله ، قال له
مقال السياسى المخرج المداور بالكلام : « أراك تسأل عن ابلك
ولا تسأل عن الكعبة » فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن :
« أما الابل فأنا ربها ، وأما البيت فله رب يحميه ! »

فكان ايمانه ايمانا كفوا لدهاء السياسة ، ولم يكن ايمان
العجز والتواكل والاستسلام . .

ومن كان له هذا الخلق ، وهذا الضمير ، وهذا الايمان ،
وهذه الرئاسة ، فليس من عجب أن ينجب نبيا فى زمان
يستدعى الانبياء ، ومكان مهيب لهم دون كل مكان . .
بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان

أب

واذا كان عبد المطلب جدا صالحا لنبي كريم ، فابنه عبد الله
نعم الأب لذلك النبي الكريم . .
لأنما كان بضعة من عالم الغيب ، أرسلت الى هذه الدنيا
لتعقب فيها نبيا وهي لا تراه . . ثم تعود
كان انسانا من طينة الشهداء ، يتجه اليه القلب الانساني
بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة . فهو الفتى الذي اسمه
عبد الله والذي اختير للفداء ، فجاشت له شفقة قومه حتى
تركه لهم القدر الى حين . وهو الفتى الذي تحدثت الفتيات
في الحدور بوسامته وحيائه ، وودت مئات منهن لو زمن منه
بنعمة الزواج . وهو الفتى الذي أقام مع عروسه ثلاثة أيام ،
ثم سافر ليتجر فاذا هي السفرة التي لا يؤوب منها
الذاهبون . وهو الفتى الذي مات وهو غريب ، وولد له
نسله الكريم وهو ذفين . وهكذا تتمثل البصائر الخاشعة
آباء الأنبياء والسلالة التي تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم
البقاء وعالم الفناء

رجل

عالم يتطلع الى نبي . . وأمة تتطلع الى نبي ، ومدينة تتطلع
الى نبي ، وقبيلة يبيت وأبوان أصلح ما يكونون لانجباب
ذلك النبي

ثم هاهو ذا رجل لا يشركه رجل آخر في صفاته ومقدماته ،
ولا يدانيه رجل آخر في مناقبه الفضلى التي هيأته لتلك
الرسالة الروحانية المأمولة في المدينة . . وفي الجزيرة ، وفي
العالم بأسره

نبيل عريق النسب . . وليس بالوضيع الخامل ، فيصغر
قدره في أمة الانساب والاحساب . . .

فقير . . وليس بالفنى المترف فيطغيه بأس النبلاء الأغنياء،
ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار

يتيم بين رجاء . . فليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه
التدليل ملكة الجذ والارادة والاستقلال ، وليس هو بالمهجور
المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس
وسليقة الطموح ، وفضيلة العطف على الآخرين

خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية
والحاضرة . . تربى في الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان
واشتغل بالتجارب وشهد الحروب والأحلاف ، واقترب من
السراة ولم يتعد من الفقراء . .

فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفاية
العربية . .

وهو على صلة بالدنيا التى أحاطت بقومه . . فلا هو
يجعلها فيغفل عنها ، ولا هو يغامسها كل المغامرة فيفرق
في لجتها

أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة
المرقوبة ، على غير علم من الدنيا التى ترقبها
ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام . .

قد ظهر والمدينة مهياة لظهوره لأنها محتاجة اليه،والجزيرة
مهياة لظهوره لأنها محتاجة اليه ، والدنيا مهياة لظهوره لأنها
محتاجة اليه ، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه
العلامة ؟ وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير ؟
وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع
ومن هذا التوفيق ؟ علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة
تحتاج اليها الأمة ، وهى أسباب تتمهد لظهورها ، وهى رجل
يضطلع بأمانتها فى أوانها . .

فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟
واذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو
تعوض ما نقص منها ؟

خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين ، والا
فلأى شيء خلق ؟ ولأى عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه
كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب
والصفات ؟

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من
الزمن ، لكان تاجرا أميناً ناجحاً موثقاً به في سوق التجار
والشراة . . ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ، ثم
تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة اليها في هذا العمل مهما
يتسع له المجال

ولو اشتغل زعيماً بين قومه لصلح للزعامة ، ولكن الزعامة
لا تستوفي كل ما فيه من قدرة واستعداد . .

فالذى أعدّه له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية
لا سواها ، وما من أحد قد أعد في هذه الدنيا لرسالة دينية
ان لم يكن محمد قد أعد لها أكمل اعداد

بشائر الرسالة

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر
الرسالة المحمدية . . يسردون ما أكده الرواة منها وما لم
يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته
الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ،
ويتفرقون في الراى والهوى بين تفسير الايمان وتفسير
العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن
يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد

أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر
الاسلام ؟

لا موضع هنا لاختلاف . .

فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها اثر في اقناع
أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة ، أو كان ثبوت
الاسلام متوقفا عليها

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد ، لم يعرفوا
يومئذ مغزاها ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو
على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسالة بعد
البشائر بأربعين سنة ، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم
يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا
إليه

وقد ولد مع النبي عليه السلام أطفال كثيرون في مشارق
الأرض ومغاربها ، فاذا جاز للمصدق أن ينسبها الى مولده
جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره . ولم تفصل الحوادث
بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين . .
يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين
وانكار المنكرين

أما العلاقة التى لا التباس فيها ولا سبيل الى انكارها ،
فهى علامة الكون وعلامة التاريخ . .

قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا فى حاجة الى
رسالة . .

وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك
الرسالة . .

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ

عقريّة الداعى

الفصاحة

اتفقت أحوال العالم أذن على انتظار رسالة . .
واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة . .
وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد ، ولا
تتفق معها الوسائل التي تؤدي بها رسالته على أحسن
الوجوه
كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ، ثم لا يظهر
الرسول

وكان من الممكن أن يظهر الرسول في البيت الصالح وفي
البيئة الصالحة ، ثم لا تتهيأ له الصفات التي يتم بها أداء
الرسالة

ولكن الذي اتفق في رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب
الاتفاق ، وكان المعجزة التي تفوق المعجزات . . لأنها مع
ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها ، مما
يقبله العقل قبولاً سائفاً بغير عنت ولا استكراه

فكان محمد مستكملاً للصفات التي لاغنى عنها في انجراح
كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ
كانت له فصاحة اللسان واللغة . .

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة . .
وكانت له قوة الايمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها . .
وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول . . ولكنها هي
التي عليها المدار في تبليغ الرسالة ، ولو اتفقت فيما عداها
جميع الأحوال

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ،
ولموضوع الكلام . . فيكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق به

غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب أما فصاحة محمد . . فقد تكاملت له في كلامه ، وفي هيئة نطقه بكلامه ، وفي موضوع كلامه

فكان أعرب العرب ، كما قال عليه السلام : « أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر »

فله من اللسان العربي أفصح به هذه النشأة القرشية البدوية الخالصة . . وهذه هي فصاحة الكلام

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم ، أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مانوس . . فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل

أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضي الله عنها حيث قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس إليه »

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها . . فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم

ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ، ويكون سليما في كلامه سليما في نطقه . . ثم لا يقول شيئا يستحق أن يستمع إليه السامع في موضوعه

فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول في فصاحته السائغة من شتى نواحيها . . فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أوتي حقا « جوامع الكلم » ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء مازق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام

الوسامة والثقة

وكانت له مع الفصاحة صباحة ودمائة تحببانه الى كل من رآه ، وتجمعان اليه قلوب من عاشروه . وهي صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو ، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء

وحسبك من حب الضعفاء إياه أن فتى مستعبدا يفقد إياه وأسرته - كزيد بن حارثة ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة فيؤثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه . .

وأن خادم خديجة رضى الله عنها - ونعنى به ميسرة - يقدمه لبشر سيدته بالربح والتوفيق في تجارتها ، وهو أولى أن ينفس عليه ، وإن يدعى لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقديم . .

وحسبك من حب الأقوياء إياه أنه جمع على محبته أناسا بينهم من التفاوت في المزاج والخصال ما بين أبي بكر وعمر وعثمان وخالد وأبي عبيدة ، وهم جميعا من عظماء الرجال

ولكن الرجل قد يكون صبيحا دمثا محبوبا ، ولا يكون له من ثقة الناس وائتمانهم إياه نصيب كبير . . لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به ، وإذا اتفقت الخصلتان حيناً فمن الجائز أن تفترقا حيناً آخر ، لأنهما في عنصر الخصال لا تتلازمان

أما محمد فقد كان جامعا للمحبة والثقة كأفضل ماتجتماعان، وكان مشهورا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه . وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه . وامتلاؤه من العلم بمنزلته من ثقة القوم ، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم في

دعوته فكان يسألهم : « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟ » فيقولون : « نعم ، أنت عندنا غير متهم » . . . الا أن الانسان ينفر مما يصدمه في مألوفاته وموروثاته ، ولو صدقه وقام لديه ألف برهان عليه . فلم يكن ما بالقوم أنهم لا يصدقون محمدا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة ، وإنما كان بهم أنهم ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوءه فيمن يحب أوفىما يحب ، وهو مفتوح العينين ناظر الى صدق ما يلقي اليه

الآيمان والغيرة

ومن المحقق أن هذه الموافقات على كثرتها ، وهذه الشكائل على ندرتها ، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج اليها الداعى أشد من احتياجه الى الفصاحة والصباحة . . . وهى ايمانه بدعوته وغيرته على نجاحها . فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسبات ، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الايمان بصواب ما يدعو اليه ، والغيرة عليه

وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال الاوثان . . . وجاوره أناس أقل منه نبلا في النفس ولطفا في الحس ونفورا من الرجس ، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله ، ومن حاجتهم الى عبادة غير عبادة الأصنام ، وآداب غير آدابهم في تلك الأيام . فإذا جاوزهم فى صدق وعيه وسداد سعيه فقد وافق المعهود فيه ، والموروث من جده وأبيه

ولما آمن برسالته هو ودعوة ربه اياه الى القيام بأداء تلك الرسالة لم يهجم على هذا الايمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع

غيره ، ولكنه تردد حتى استوثق ، وجزع حتى اطمأن .
وخطر له في فترة من الوحي أن الله قلاه وأعرض عنه ، ولم
يأذن له في دعوة الناس الى دينه . ثم تلقى الطمأنينة من
وحي ربه ومن وحي قلبه ومن وحي صحبه . . فصدع بما
أمر ، ورضى ضميره بما أوتى من الهداية على النحو الذي
رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية ، مع
ما بينه وبينهم من فارق في الرتبة والأهبة ، وما بين زمانهم
وزمانه من فارق في الحاجة الى الاصلاح

فما من عجب اذن أن يكون محمد صاحب دعوة . .

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث أتجهت ، وأن تبلغ
من وجهتها الغاية التي بلغت . وانما العجب ممن يغفلون
عن هذه الحقيقة أو يتغافلون عنها لهوى في الأفئدة ، فيشبهون
اليوم أولئك الجاهلين الذين أصرروا أمس على الكفر به وحجبوا
بأيديهم نوره عامدين

نجاح الدعوة

ما من حركة كبرى في التاريخ تتضح للفهم ان لم يكن
نجاح الدعوة المحمدية مفهوماً بأسبابه الواضحة المستقيمة
التي لا عوج في تأويلها ، وما من شيء غير الفرض الأعوج
يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة ثم يخيل
إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولاً غير مطلوب في هذه
الدنيا ، وأن نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود
أو غير الارهاب بالسيف والاغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر
والحور العين

أي ارهاب وأى سيف . . ؟

ان الرجل حين يقاتل من حوله انما يقاتلهم بالمشات

والآلوف . . وقد كان المئات والآلاف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدا لسيوفهم ، وكانوا يلقون عنتا ولا يصيبون أحدا بعنت ، وكانوا يخرجون من ديارهم ليأذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدا من داره

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه ، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين . . ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبتلوا الأرهاب والوعيد ، ولم يحملوه لبدأوا أحدا بعدوان أو يستطيلا على الناس بالسلطان

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ، ولم تكن كلها الا حروب دفاع وامتناع

أما الأغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والخور العين . . فلو كان هو باعثا للإيمان ، لكان أحرى الناس أن يستجيب الى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم ، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس الى استدامة الحياة واستبقاء النعمة . فان حياة النعيم بعد الموت محبة الى المنعمين تحبيبها الى المحرومين ، بل لعلها أشهى الى الأولين وأدنى . . ولعلمهم أحرص عليها وأحنى ، لأن الحرمان بعد التدوق والاستمرار أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال



لم يكن أبو لهب أزهدي في اللذة من عمر . .
ولم يكن السابقون الى محمد أرغب في النعيم من المتخلفين عنه . .

ولكننا ننظر الى السابقين وننظر الى المتخلفين ، فنرى
فارقا واحدا بينهم اظهر من كل فارق . ذلك هو الفارق بين
الأخيار والأشرار ، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين
وبين من يعقلون ويصفون الى القول الحق ، ومن يستكبرون
ولا يصفون الى قول

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا . .
وليس هو الفارق بين طالب لذة وزاهد فيها ، أو بين مخدوع
في النعيم وغير مخدوع

ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها
من مثال عمر رضي الله عنه في اسلامه . . فقصته في ذلك
نموذج لتلبية الدعوة المحمدية ، ينفي كل كلام يقال عن الوعيد
والاغراء وأثرهما في اقناع الأقوياء أو الضعفاء

قال ابن اسحق : « . . . خرج عمر يوما متوشحا بسيفه
يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطا من أصحابه . . .
قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين
رجال ونساء . ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه
حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ،
وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم . .
ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم
يخرج فيمن خرج الى أرض الحبشة . فلقيه نعيم بن عبد الله
فقال له : (من تريد يا عمر ؟) فقال : (أريد محمدا هذا
الصابي الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب
دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله) فقال نعيم : (والله لقد
غررتك نفسك يا عمر ! . . أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشي
على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك
فتقيم أمرهم ؟) قال : (وأى أهل بيتي ؟) قال : (ختنك
وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ! واختك فاطمة بنت

الخطاب . . فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك
بهما)

« قال : فرجع عمر عامدا الى أخته وختنه ، وعندهما
خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت
الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر
حين دنا الى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال :
(ما هذه الهينة التي سمعت ؟) قالا له : (ما سمعت
شيئا . .) قال : (بلى والله ! . . لقد أخبرت أنكما تابعتما
محمدا على دينه) . . ويطش بختنه سعيد بن زيد فقامت
اليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها
فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته : (نعم . . قد أسلما
وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك) . فلما رأى عمر
ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته :
(اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفا أنظر
ما هذا الذي جاء به محمد) . وكان عمر كاتباً ، فلما قال
ذلك قالت له أخته : (أنا نخشاك عليها) . قال : (لا تخافى)
وحلف لها بآلهته ليردنها اذا قرأها اليها . فلما قال ذلك
طمعت في إسلامه ، فقالت له : (يا أخى ! انك نجس على
شركك ، وأنه لا يمسها إلا الطاهر) . فقام عمر فاغتسل ،
فأعطته الصحيفة وفيها « سورة طه » . فقرأها فلما قرا
منها صدرا قال : (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! !) فلما
سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له : (يا عمر ! والله انى
لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته وهو
يقول : (اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن
الخطاب . . فالله الله يا عمر !) فقال له عند ذلك عمر : (فدلنى
يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم) . فقال له خباب :
(هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه) . فأخذ
عمر سيفه فتوشحه ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه

وسلم واصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : (يا رسول الله ! هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف) . فقال حمزة بن عبد المطلب : (نأذن له . . فان كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وأن كان يريد شراً قتلناه بسيفه) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أئذن له !) فأذن له الرجل ونهض اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع رداءه ، ثم جبذه جبذة شديدة وقال : (ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة !) فقال عمر : (يا رسول الله ! جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله) . قال : (فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من اصحابه أن عمر قد أسلم) ففرق اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع اسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله وينتصفون بهما من عدوهم . . . »

هذه قصة اسلام عمر بن الخطاب ، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والاغراء . . خرج بالسيف ليقتل محمداً ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف ، وقرأ صدراً من سورة طه ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى »

فلا جبن اذاً ولا طمع فى اسلام عمر بن الخطاب ، بل رحمة واناة واعتدال

ولم يكن في اسلام الفقراء الذين هم اقل من عمر ناصرا
وأضعف منه بأسا جبن ولا طمع ، لأنهم تعرضوا باسلامهم
للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله ، وما
كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال ان الذين سبقوهم
الى الاسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن
مواجهة القوة .. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة
وصلاح الأمور ، فمن كان اقرب الى هذه الطلبة من غنى أو
فقر . ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم ، ومن كان به زيغ
عنها فقد أبى .. وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل
أن يتجرد للاسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجرد له
سيف تهابه السيوف . وما يقسم الطائفتين أحد فيضع
أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة
من قريش في جانب العصمة والشجاعة الا أن يكون به هوى
كهوى الكفار من قريش ، في الاصرار والانكار

، انما نجحت دعوة الاسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت
لها الحوادث ، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة
أحواله وصفاته ..

فلا حاجة بها الى خارقة ينكرها العقل أو الى علة عوجاء
يلتوى بها ذوو الأهواء ، فهي أوضح شيء فهما لمن أحب أن
يفهم ، وهي أقوم شيء سبيلا لمن استقام

عقبية محمد العسكرة

حروب دفاع

قلنا في الفصل السابق ان الاسلام لم ينجح لأنه دين قتال كما يردد أعداؤه المفرضون ، ولكنه نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق ، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار

ونريد في هذا الفصل أن نقول ان محمدا كان على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه ، وانه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده .. ولكنه اجتنبه لأنه نظر الى الحرب نظرتة الى ضرورة بفيضة يلجأ اليها ولا حيلة له في اجتنابها ، ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة

وقبل ذلك ينبغي أن نستحضر في الذهن بعض الحقائق التي تظهر لنا الاختلاف بين الدين الاسلامي والأديان الأخرى في مسألة القتال ، لنثبت أن للاسلام شأنًا في اجتناب القوة كشأن كل دين ، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن الى جانب ذلك صالحا للانتصار ، وأن الأديان الأخرى ما كانت لتحجم عن عمل أقدم عليه النبي لو كانت دعوتها كدعوته ، وكانت أسبابها كأسبابه



فالحقيقة الأولى ، أن مطعن القائلين بأن الاسلام دين قتال إنما يصدق - لو صدق - في بداءة عهد الاسلام كما أسلفنا ، يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين ، ولولا هم لما كان له جند ولا حمل في سبيله سلاح

لكن الواقع أن الاسلام فى بدائة عهدہ كان هو المعتدى عليه ولم يكن من قبلہ اعتداء على أحد . . وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية واجتماع القوم حول النبی عليه السلام، فانهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى امروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة ، فلم يكن لهم قط عدوان ولا اكراه

وحروب النبی عليه السلام كما أسلفنا كانت كلها حروب دفاع . ولم تكن منها حرب هجوم الا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الايقان من نكث العهد والاصرار على القتال ، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم . . ففى غزوة تبوك عاد الجيش الاسلامى أدراجه بعد أن ايقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة ، وكان قد سرى الى النبی نبأ أنهم يعبثون جيوشهم على حدود البلاد العربية . فلما عدلوا عدل الجيش الاسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره

والحقيقة الثانية ، أن الاسلام انما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والاقناع

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف « سلطة » تقف فى طريقه ، وتحول بينه وبين اسماع المستعدين للاصفاء اليه لأن السلطة تزال بالسلطة ، ولا غنى فى اخضاعها عن القوة . .

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الاسلامية ، وانما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء ، وفى الأعقاب بعد الأسلاف . . وكل حجتهم التى يذودون بها عن تلك التقاليد

أنهم وجدوا آباءهم عليها ، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه

وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمرائها لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة ، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء ، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية ، فيمتنع القتال

ومن التجارب التي دل عليها التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب . . ومن تلك التجارب تجربة فرنسا في القرن الماضي ، وتجربة روسيا في القرن الحاضر ، وتجربة مصطفى كمال في تركيا ، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله في سائر البلاد فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة . . ولا بد من التمييز بين العاملين ، لأنهما جد مختلفين



والحقيقة الثالثة أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها ، ماذا تصنع أن لم تحتكم إلى السلاح ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »

والدولة التي يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها ، بماذا تفض الخلاف بينهم أن لم تفض به بقوة السلطان ؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضا حيث جاء فيه :
« وان طائفتان من المؤمنين اقاتلوا فأصلحوا بينهما ، فان
بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء الى
أمر الله . فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان
الله يحب المقسطين »

وفي كلتا الحالتين، يكون السلاح آخر الحيل ، وتكون نهاية
الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح . ثم يأتي الصلح
والتوفيق أو يأتي التفاهم بالرضى والاختيار



والحقيقة الرابعة ، أن الأديان الكتابية بينها فروق موضوعية
لا بد من ملاحظتها عند البحث في هذا الموضوع . .

فاليهودية أو الاسرائيلية كانت كما يدل عليها اسمها أشبه
بالعصبية المحصورة في أبناء اسرائيل منها بالدعوة العامة
لجميع الناس . . فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم
فيها كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم
فيه ، وكانوا من أجل هذا لا يحركون سنتهم - فضلا عن
أمتشاق الحسام - لتعميم الدين اليهودي وادخال الأمم
الأجنبية فيه ، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والاسلام
في هذا الاعتبار

أما المسيحية فهي قد عنت « أولا » بالآداب والأخلاق ،
ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة

وقد ظهرت « ثانيا » في بلاد للمعاملات والنظم الحكومية
فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان ،
فهي قد عدلت عن فرض المعاملات والدساتير لهذه الضرورة ،
لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين

وقد ظهرت « ثالثا » في وطن تحكمه دولة أجنبية ذات

حول وطول ، وليس للوطن الذى ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة فى ميدان القتال
أما الاسلام فقد ظهر فى وطن لا سيطرة للأجنى عليه ،
وكان ظهوره لاصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن
والنظام . . والا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء
الحدود العربية

فاذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية ، فذلك اختلاف
موضعى طبيعى لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه
وآية ذلك ان المسيحية صنعت صنع الاسلام حين قامت
بين أهلها الدول والجيوش ، وحين استقلت شعوبها عن
الأجانب المتغلبين . . وأرابت حروب المذاهب فيما بين أبنائها
على حروب صدر الاسلام مجتمعات



والحقيقة الخامسة ، أن الاسلام شرع الجهاد ، وأن النبى
عليه السلام قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله
إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها
وحسابهم على الله »

وجاء فى القرآن الكريم : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا
نفسك وحرص المؤمنین ، عسى الله أن يكف بأس الدين
كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا »

وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلادا غير بلاد العرب ،
ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح
الا أن هذه الفتوح تأخرت فى الزمن ولم يتم شىء منها قبل
استقرار الدولة للاسلام ، فلا يمكن أن يقال انها كانت وسيلة
الاسلام للظهور ، وقد ظهر الاسلام قبلها وتمكن فى أرضه
 واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله . .

ثم ان هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة ان لم تفرضها الدعوة الى دينها

فلو قدرنا ان الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو اليه ، لوجب في ذلك العهد ان يأمن على بلاده من الفوضى التي شاعت في ارض فارس وفي ارض الروم . . . ووجب ان يكف الشر الذي يوشك ان ينقض عليه من كليهما ، وان يمنع عدوى الفساد ان تسرى منهما الى حماه . . .

هذا الى ان الاسلام قد أجاز للأمم ان تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وهو أهون ما يطلبه غالب من مغلوب



والحقيقة السادسة ، ان المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل اسلامها وبعد اسلامها تدل على ان جانب الاسلام هو جانب الاقناع لمن اراد الاقناع

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار ، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام . . . واطمان الناس على ارواحهم وازواقهم وأعراضهم ، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه

فاذا قيل ان المدعوين الى الاسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين ، فلا ينفي هذا القول انهم اقتنعوا به متأخرين . . . ان الاسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار ، الى جانب قدرته على اكراه من يركب رأسه ويقف في طريق الاصلاح ومن نظر الى الاقناع العقلي ، تساوى لديه من يستميلك الى العقيدة بتوزيع الدواء والطعام أو بتربية الاطفال عليها وهم لا يعقلون ومن يستميلك اليها بالخوف من الحاكم . . . على فرض ان خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الاسلام

فالشاهد الذى تطعمه وتكسوه ليقول قولك فى احدى القضايا ، كالشاهد الذى ينظر الى السوط فى يدك فيقول ذلك القول . . كلاهما لا يأخذ باقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة ، ولا يدفع عن عقيدة دفع العارف البصير

وصفوة ما تقدم ان الاسلام لم يوجب القتال الا حيث اوجبته جميع الشرائع وسوغته جميع الحقوق ، وان الدين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك . . الا أن يحال بينها وبين انتصائه ، أو تبطل عندها الحاجة الى دعوة الغرباء الى اديانها . وأن الاسلام عقيدة ونظام ، وهو من حيث النظام شأنه شأن كل نظام فى أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه

القائد البصير

لم يكن الاسلام اذن دين قتال ، ولم يكن النبى رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها ، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير اذا وجبت الحرب ودعته اليها المصلحة اللازمة . . يعلم من فنونها بالالهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه اصابة التوفيق واصابة الحساب واصابة الاستشارة . وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترب بآية الابتكار والانشاء ، لأن القيادة الحسنة هي القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والاجسام

وقد كانت غزوة بدر هى التجربة الاولى للنبي عليه السلام فى ادارة المهارك الكبيرة ، فلم يأنف أن يستمع فيها الى مشورة

الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال الى غير المكان الذي نزل فيه ، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى . . فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكري من أساطين فن الحرب في العصر الحديث ليقترح وراء خطته مقترحا أو ينبه الى خطأ ، لأعياء التعديل

ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذي كان هو الأسلوب الغالب في العصور الماضية ، والذي ظهر في الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة الأخيرة في جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود . . لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق في تخطط النبي العسكرية ، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم

١ - فنابليون كان يوجه همه الأول الى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع ، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع . . وإنما كانت عنايته الكبرى منصرفة الى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان ، وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يفنيه عن المحاولات التي يلجأ اليها جلة القواد

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور . . أن يختار الموقع الملائم له ، وأن يختار الفرصة ، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداداته

وكان النبي عليه السلام سابقا الى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها . .

فكان كما قدمنا لا يبدأ أحدا بالعدوان ، ولكنه اذا علم بعزم الاعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال ، بل ربما وصل اليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك

والناس مجذبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة . . فلا يثنيه ذلك عن الخطة التي تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال ، ولا يبالي ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي فلم يحدث ما توقعوه

وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضي على عزائم أعدائه بالقضاء عليها . . ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء ، واضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي الهاجمين ، ألا أن يكون الهجوم وبالا على المتقدمين عليه ، كما حدث في غزوة الخندق

٢ - وكان نابليون يقول ان نسبة القوة المعنوية الى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة الى واحد . .

والنبي عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الايمان . وربما بلغت نسبة هذه القوة الى الكثرة العددية كنسبة خمسة الى واحد في بعض المعارك ، مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب الى جانب رجحانهم في عدد الجنود . . ومعجزة الايمان هنا أعظم جدا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة . فالنبي عليه السلام كان يحارب عربا بعرب ، وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة . . فلا يقال هنا ان الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون ، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والايمان

٣ - وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناولها اقتداره . . فكان يحارب الانجليز بمنع تجارتهم

وسفّنهم أن تصل إلى القارة الأوربية ، وتحويل المعاملات
عن طريق إنجلترا إلى طريق فرنسا . .

وهكذا كان النبي عليه السلام يحارب قريشا في تجارتها ،
ويبعث السرايا في أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوروبا هذه السرايا
وسموها « قطعا للطريق » ، وهى هى سنة المصادرة بعينها
التي أقرها « القانون الدولي » وعمل بها قادة الجيوش في
جميع العصور ، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة والحرب
الماضية ، رشيدا تارة وغاليا في الحمق والشطط تارة أخرى
{ - وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه إلى الجيش ،
ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة

ونرجع إلى غزوات النبي عليه السلام فلا نرى أنه حاصر
محلة ، إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة
القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل
نجاحها في الغدر والوقعة ، كما حدث في حصار بني قريظة
وبني قينقاع ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في
الميدان المختار بغير كبير اختلاف

ه - وكان نابليون معتادا برأيه في الفنون العسكرية
ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه كان مع هذا الاعتداد
الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب
الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه
في خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول ،
ومن ذلك ما صنعه ببدر - والمعنا إليه آنفا - حين أشار عليه
الحباب ابن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذي نزلوا فيه أول
الأمر ثم بتعوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه
الاعداء ، وقيل في روايات كثيرة أنه عمل بمشورة سلمان
الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه

المشركون على المدينة . فحفر الخندق وعمل النبي بيديه في حفره

وقبول النبي مشسورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة ، وسنة من سنن القواد الكبار ، غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقا أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة في إبان الهجمة عليها . لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات إلى سد الثغور وحماية الظهور في جميع وقعاته . وفي وقعة أحد جعل الجبل إلى ظهره وأقام على الشعب الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميا مشددا عليهم في التزام موقفهم ، قائلا لهم : « احموا ظهورنا فانا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل »

والذي يفعل هذا في شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله في ثغرة مدينة ، ولكن المشاورة هنا هي المقصودة بالمضاهاة بين ما سبق إليه النبي وما تبع فيه نابليون . فهذه خصلة معهودة في كبار القواد لا تقدر فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب

٦ - ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون

وكانت دراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه يضربون العبددين المستقيين من ماء بدر ، لأنهما يذكران قریشا ولا يذكران أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء ، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التي ينحرونها كل يوم ، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي يحتاج

اليه . وكان صلوات الله عليه انما يعول في استطلاع اخبار كل مكان على اهله واقرب الناس الى العلم بفجاجة ودروبه ، ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع

٧ - واشتهر عن نابليون انه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام ، وكان يقول انه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام

والنبي عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التي عاهدوا عليها ويشبهون به وبالإسلام أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون في هجوه وهجو دينه ، فينفذ اليهم من يحاربهم في حصونهم أو يتكفل له بإخلاص منهم

وعاب هذا بعض المفرضين من الكتاب الأوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الانجليزي كولردج الذي كان يخوض في ذمه ويستهوئ الاسماع بسحر حديثه

الا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الإسلام انما هي حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وانما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الالهية والوثنية ، وليس وقوف الجيش امام الجيش الا سبيلا من سبل الصراع في هذا الميدان

فليس في حالة سلم مع النبي اذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية ، ويقصده بالطعن في لباب رسالته الاسلامية ، وان لم ينفر للناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهدده ، وانما هو مقاتل في الميدان الاصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره

المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما اذا كانت الحرب قائمة دائمة
لا تنقطع فترة الا ريثما تعود

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش
وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحدا لا يحمل السلاح في
وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب ازهاق حياته . وما
نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين ، ولا كان للرسول
الاسلامى من غرض لو جاز له أن يقبل المسالمة ممن يحاربونه
في دينه وان لم يشهروا السيف في وجهه ، فان الضرب
بالسيف لأهون من المقتل الذى يضربون فيه



تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التى سبق اليها
محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب
أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن
نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح

ولم يتخذ محمد الحرب صناعة ، ولا عمد اليها كما أسلفنا
الا لدفع غارة واتقاء عداوة ، فاذا كان مع هذا يتقن منها
ما يتولاه مدفوعا اليه ، فله فضل السبق على جبار الحروب
الحديثة الذى تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع
الى أن سكن فى منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ
القائد الأسمى بين رمال الصحراء

ولقد كانت خبرة النبى ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث
القتال، فكانت طريقته فى اختيار المكان والغرض أو فى اختيار
القائد وتزويده بالوصايا والاتباع مثلا يحتذى فى جميع
العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذى كثرت فيه ذرائع
التخبيئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة ، فكثرت فيه —
من ثم — حاجة المقاتلين الى استقصاء أحوال الأعداء

ففى الجروب الحديثة- يتردد ذكر الاوامر المختومة التى تصدر الى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو فى عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض ، الى أمثال ذلك من العلامات التى تعين بها الجهات

ويتفق فى أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعاً على سر البعث ورجاله جميعاً يجهلون ولا يعرفون أهم خارجون فى غزوة أم فى مناورة استطلاع ، الى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات ، وهنا لك تصدر الاوامر التى لا بد من صدورهما للتهيؤ والتنفيذ ، ولا خوف من كشفها فى تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذى يقابلها به العدو اذا انكشف له قبل تنفيذها بفترة وجيزة ، ولا سيما اذا كانت الحركة من حركات البحار

هذه الاوامر المختومة ليست بحديثة

وقد عرفت فى المأثورات النبوية على أتم أصولها التى تلاحظ فى أمثالها ، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن « سر حتى تأتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها غير قريش وتعلم لنا من أخبارهم »

وهذا نموذج من الاوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثاً وقديماً وعند بدء الدعوات على التخصيص

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبي عليه السلام ، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عينا عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما فى البوح به من الخطر المحذور ، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون . وان

الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبي عليه السلام في جمع المطالب ، وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع ، ولهذا كان إذا أراد غزوة وري بغيرها على النحو الذي يتبعه قادة الحروب الى الآن

ومما لوحظ في كتاب النبي لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصاته ألا يكره أحدا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه اذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعاه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب الى النقيض فيحرف الأخبار عمدا ، أو يتلقاها على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة ، حتى تطمئن الى صحته قبل الاعتماد عليه

وفي الحرب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين

فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطائرات وراء الصفوف ، فيتسللون الى مراكز المواصلات ويعيشون بين القرى المعزولة ، فيشيعون فيها الرعب والخيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستمعون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد

قيل في الاعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير ، وقيل في انتقادها والتنبيه الى خطرها كثير

فمن دواعي الاعجاب بها انها افادت في قطع المواصلات واشاعة الذعر وتضليل المدافعين ، وانها شيء جديد في شكله وان لم يكن جديدا في غايته ومرماه

ومن اسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية . فهي تستلزم أن يكون الرائد غيورا على عمله متحمسا لانجازه رقيبا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه ، فليس أسير له اذا هو انفراد وأعوزته الرغبة في انجاز عمله من أن يستأسر في أول مكان يصل اليه من بلاد الأعداء ، طلبا للسلامة . ولا عقاب عليه الى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من الماذير ان وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه ، وهيئات أن تستجمع الأدلة عليه في أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات .

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة ان لم ينفذها يريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول اليهم ، وهي لهذا أخرى أن تحسب من وحى اخوان الطريق والهام العقائد لا من النظام الذي يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون في نفوس الناشئة جذوة البغضاء ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللد الذي يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب

وها هنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والاكراه
فهذه « أولا » بعثة منفردة لا سبيل الى الاكراه الفعالي بين رجالها اذا أريد

وهي « ثانيا » بعثة استطلاع لا يغنى فيها عمل الكاره

المقسور ، وألزم ما يلزم العامل فيها إيمانه وصدق نيته
وحسن مودته لمن أرسلوه ، فان أعوزته هذه الصفة فقد
أعوزه كل شيء

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع فقد كان النبي
عليه السلام عليهما بمزاياه معنيا به غاية العناية ، يحسب
العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، في حمى من
الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية في
الوقت الضروري ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف
أصيب نابليون في هذا الميدان حين أصيب في وسائل
الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها
على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون في روسيا أمس
وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم

فمن أسباب هزيمة نابليون اهماله النصائح التي سمعها في
مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل في الحرب الروسية،
لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه
تحت جناح الظلام ويخلون المدن والطرق حتى لا يرى فيها
ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال
أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان شديد التعويل
عليه

أما هتلر فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من
قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة

فقد اشتهر أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع
قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم
واشتهر أنه أخطأ في استطلاع أخبار القوم إذ خيل
إليه أن الشعب الروسي يتحفز للثورة ويتربقب الاغارة عليه

لنصرة المغير كائنا من كان ، ولو جاءت الفارة من عنصر معاد
للعنصر السلافي ، وهو عنصر الجرمان

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون ،
ولكنه لم يخطيء قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته
وكشوفه ، ولعلنا نفهم - كلما درسنا زمانه الخافل بالعبر
والأمثلة الباقية - أن دراسته ضرب من دراسة العصر
الحديث والقادة المحدثين

وينبغي ألا تمر بنا سرية عبد الله بن جحش دون أن نستوفي
كل ما فيها من الشئون العسكرية . لأنها تشتمل على أكثر
من جانب واحد من جوانب السنة النبوية والتشريع
الإسلامي في هذه الشئون

فهى سرية استطاع كما علمنا لم تؤمر بقتال ولم يؤذن
لها فيه

لكن حدث بعد فض الكتاب أن اثنين من رجال السرية
ذهبا يطلبان بعيرا لهما ضل فأسرتهما قريش ، وهما سعد
ابن أبي وقاص وعتبة بن غزوان

ثم نزل الركب بنخلة فمرت بهم عير قريش تحمل تجارة
عليها عمرو بن الحضرمي ، آخر شهر رجب . وكانت قريش
قد حجزت أموال أناس من المسلمين منهم بعض من في
السرية . فتشاوروا في قتال أهل العير ، وثاروا فيما
يصنعون : أن تركوا العير تمضي ليلتها امتنعت بالحرم وفاتهم
تعويض ما حجزته قريش في هذه الفرصة السانحة ، وأن
قاتلوا أهلها قتلوههم في شهر حرام ، لكنهم اندفعوا إلى القتال
فأصابوا من أصابوه ورمى أحدهم عمر بن الحضرمي بسهم
فأرداه ، وأسروا رجلين

وقفل عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجزوا
للنبي عليه السلام الخمس من غنيمتهم ، فأباه عليه السلام
وقال لهم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، وعنهم أخوانهم

لمخالفة النبي ، وساءت لقياهم بين أهل المدينة
وراحت قريش تثير ثائرة العرب ، واندس جماعة من
اليهود يحضّون نار الفتنة ، وتنادوا أن محمدا وأصحابه قد
أباحوا الدماء والأموال في الشهر الحرام ، وقال المسلمون في
مكة : بل كان ذلك في شعبان ، ثم نزلت الآيات : « يسألونك
عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل
الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم
عن دينكم ان استطاعوا »

فقبض النبي العير والأسيرين ، وطلبت قريش فداءهما
فقال عليه السلام : « لانفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ، فانا
نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما نقتل صاحبكم »
هذه قصة السرية وما وقع فيها خلافا لأمر النبي وما نجم
عنها من تشريع

فاذا نحن كتبناها باصطلاح العصر الحديث فكيف نكتبها ؟
وكيف نفهمها ؟

هي لا خلاف حادثة ظائع أو حادثة حدود :

ترسل إحدى الدول طليعة من جندها الى حدودها للكشف
أو للحراسة ، فيقع الاشتباك بينها وبين طليعة في بلاد دولة
أخرى على غير علم من الحكومتين

فالذي يحدث في هذه الحالة أن تنظر الحكومة الأخرى الى
المسألة كأنها مسألة فردية عرضية لا تستوجب القتال .
وتكتفى بما ينال المسئولين على أيدي حكومتهم من جزاء أو
تأنيب ، وينحسب النزاع

هذا أو تصر الحكومة الأخرى على طلب الترضية . فان
قبلتها الحكومة المطلوبة فالنزاع منحسب ، وان لم تقبلها
فالمفاوضة والمساومة أو امتشاق الحسام

ذلك اذا نظر الفريقان الى المسألة كأنها مسألة فردية

عرضية ولم يشأ أحدهما أو كلاهما أن يضعها موضع التشريع العام لتقرير الحكم الذي تجريان عليه فيها وفي أمثالها ، أو تقرير ما يعترفان به وما ينكرانه من الشرائط والاصول

وقريش لم تكتف بالنظر الى حادثة السرية كأنها حادثة فردية عرضية ، ولم تعلن الحرب تواتر لأنها تبين النية لاعلانها بعد حين . . ولكنها أثارت مسألة تشريع عام في قتال الشهر الحرام . فوجب أن ينص الاسلام على هذا التشريع صريحا لا لبس فيه ، وهذا الذي كان

ليست المسألة أن عبد الله بن جحش قد خالف أمر النبي فهذا أمر مفروغ منه ولا محل للبحث فيه

انما المسألة هي : ما الحكم بعد الآن في قتال الأشهر الحرم ؟ وماذا يبلغ من حق المشركين في الاحتماء بحرمة هذه الأشهر اذا كانوا لا يرعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا ؟ وما الجواب على تشهير قريش واحتجاجها بالحرمة التي لا ترعاها ؟

هذا هو الحكم الذي وجب أن يعلنه الاسلام ، وقد أعلنه على الوجه الذي دانت به الشرائع الحديثة في علاقاتها الحربية ولا تزال تدين به حتى اليوم . فهناك حرمة دولية اذا خالفتها احدى الدول بطل احتماؤها بها وأحل لغيرها أن يخالفها كما خالفتها أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الخسارة ، والا كانت الحرمة درعا للمعتدين ولم تكن مانعا لهم وسدا في وجوههم كما أريد بها أن تكون



واليوم تنقطع العلاقة بين دولتين في حالة حرب أو جفاء فيجوز لكلتيهما أن تحجز ما عندها من أموال الدولة الأخرى

وأن تأسر الذين في بلادها من رعاياها ، ويجوز لها أن تجعل تلك الاموال ضمانا لسداد المغارم التي تنزل بها وبأبنائها ، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها ، في سجون الدولة الأخرى

فالذي حدث بعد سرية عبد الله بن جحش هو هذا بعينه، وهو حكم القانون الدولي المتفق عليه : أسيران بأسيرين ، وأموال العير بالأموال التي حجزتها قريش للمسلمين . ولا محل لضجة الناقدين من المبشرين والمتعصبين في تعقيبهم على هذا الحادث المألوف أو على حكم النبي والاسلام فيه ، فان أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن المعاملات الدولية في زمانهم لم تفصل في أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذي ارتضاه النبي ونزل به القرآن ، وهو حكم مساواة يدين به المسلمون كما يدانون، ويحار المعتسف لو شاء أن يستبدل به ما هو خير منه وأدنى الى النفاذ والاتباع

وكان هذا القائد الملهم الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خيرا كذلك بتجنيد كل قوة في يديه متى وجب القتال، ان قوة رأى وان قوة لسان وان قوة نفوذ، فما نعرف ان أحدا وجه قوة الدعوة توجيهها أسد ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام

غرضان

والدعوة في الحرب لها - كما لا يخفى - غرضان أصيلان بين أغراضها العديدة . . أحدهما اقناع خصمك والناس بحقك ، وهذا قد تكفل به القرآن والحديث ودعاة الاسلام جميعا ، فالدين كله دعوة من هذا القبيل

وثانيهما ، اضعافه من قتالك باضعاف عزمه وإيقاع
الشتات بين صفوفه . . وربما بلغ النبي برجل واحد في هذا
الفرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة ، وبالمكاتب
والدواوين ، وبدر الاموال

قال ابن اسحق ما ننقله ببعض تصرف : « ان نعيم بن
مسعود الفطفاني أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :
يا رسول الله ، انى قد أسلمت ، وان قومي لم يعلموا
باسلامي . . فمرنى بما شئت . فقال رسول الله : انما أنت
فيناء رجل واحد فخذل عنا ان استطعت فان الحرب
خدعة . . . أى ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا فلا
يقوموا لنا ولا يستمروا على حربنا

» فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة - وكان
لهم ندما في الجاهلية - فقال : يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودى
اياكم وخاصة ما بينى وبينكم

قالوا : صدقت . . لست عندنا بمتهم

» فقال لهم : ان قريشا وغطفان ليسوا كائتم . . البلد
بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرון على أن
تتحولوا منه إلى غيره ، وان قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب
محمد وأصحابه . وقد ظاهرتموهم عليه . . وبلدهم وأموالهم
ونسائهم بغيره . . فليسوا كائتم ! . . فان رأوا نهزه
أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين
الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم . فلا تقاتلوه
مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم
ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدا حتى تناجزوه

» فقالوا له : لقد أشرت بالرأى

» ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حرب
ومن معه من قريش : قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا .

وانه قد بلغنى امر قد رأيت على حقا أن اببلغكموه نصحا لكم . . فاكتموا عنى !

« قالوا : نفعل

« قال : تعلموا ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا اليه : انا قد ندمنا على ما فعلنا . فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قریش وغطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم تكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل اليهم أن نعم . . فان بعثت اليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم ، فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا

« ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، انكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس الى ولا أراكم تتهموننى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم

« قال : فاكتموا عنى

« قالوا : نفعل ، فما أمرك ؟

« فقال لهم مثل ما قال لقریش وحذرهم ما حذرهم

« فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبو سفيان ابن حرب ورؤس غطفان الى بنى قريظة عكرمة ابن أبى جهل فى نفر من قریش وغطفان ، فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر . . فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا اليهم : ان اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، ولسنا مع ذلك بمقاتلى محمد حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال ان تنشمروا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه

« فلما رجعت اليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت

قريش وغطفان : والله ان الذى حدثكم نعيم بن مسعود
لحق ، فأرسلوا الى بنى قريظة : انا والله لا ندفع اليكم رجلا
واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا
» وقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان
الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم الا ان
تقاتلوا ، فان راوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك
انشمروا الى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم

» . . . وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح فى ليل
شامية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح
أبنيتهم . . ثم رحلت قريش وغطفان الى بلادها ، وانصرف
رسول الله عن الخندق راجعا الى المدينة »

هذه دعوة نعيم بن مسعود

وما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل ،
ولا انتهزت فرصة العناصر الطبيعية والعناصر التى تتألف
منها جماعة الاعداء كما انتهزت هذه الفرصة . . فكل كلمة
قيلت لطائفة من طوائفهم فهى الكلمة التى ينبغى أن يقال
فى الوقت الذى ينبغى أن تفعل فيه فعلها ، وهذه هى دعوة
الاضعاف والتمزيق كأمضى ما تكون

قائد بغير نظير

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية
ينبغى أن ننظر الى فكرة القائد قبيل أن ننظر الى ظواهر
المعارك أو الى أشكالها وأحجامها ، لأننا اذا نظرنا الى الظواهر
فلا معنى اذن للمقارنة على الاطلاق . . اذ من المقطوع به أن
عشرة ملايين يجتمعون فى ميدان واحد أضخم من عشرة
آلاف ، وأن حربا تدار بالمذيع والتليفون أعجب من حرب

تدار بالفهم والاشارة ، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والابل ، وأن المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهم . فلا معنى أذن لمقارنة بالظواهر تنتهى الى نتيجة واحدة . . . وهى استتضام الحرب الحديثة والنظر الى القيادة الفاعلة كأنها شىء صغير الى جانب القيادة التى توجه هذه الضخامة

لكننا اذا نظرنا الى فكرة القائد ، أمكننا ان نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون . . . بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة

وهذه الفكرة هى التى ترينا محمداً عليه السلام قائداً حربياً بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه ، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوى الراى والسلاح والكلام

وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول تأتى من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال . .

فمن كانت عنده هذه الاداة النافذة فاقصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضرورى الذى لا محيص عنه ، فذلك هو الرسول الذى تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية ، ولا يلجأ الى هذه القيادة الا حين توجبها رسالة الهداية

ويزيد هذه الشهادة عظماً أن الرجل الذى يجتنب القتال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هباب . .

شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجوز فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال . .

ان بعض المستشرقين زعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد

اشترك في حرب الفجار بتجهيز السهام ، لأنه عمل أقرب الى خلقه من الخوض في معمة القتال . . وكأنهم أرادوا أنه لم يكن قادرا على المشاركة في المعمة بغير ذلك

فهذا خطأ في الاحاطة بمزايا هذه النفس العظيمة التي تعددت جوانبها حتى تجمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات البسالة والاقدام . .

فمحمد كان في طبيعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب ، وكان على فارس الفرسان يقول : « كنا اذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم . . فما يكون أحد أقرب منه الى العدو »

ولولا ثباته في وقعة حنين ، وقد ولت جبهة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين ، لحقت الهزيمة على المسلمين

وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعا ، وقد هددها الاعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه اليه الشجاعة الكريمة لم يدعه اليه شيء . . لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قريب في داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يشنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب الى غيره

ومشاركته في الوقعات الاخرى هي مشاركة القائد الذي لا يعفى نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له ، فهي شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى ، وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود

واذا كان القائد خيرا بالحرب قديرا عليها غير هيب لمخاوفها ، ثم اكتفى منها بالضرورة الذي لا محيص عنه . . فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية ، وتأتى جميع صفاته الحسنى تبعا لصفات الرسول

خصائص العظمة

لكن للعظمة خصائص تدعو الى العجب ، وان كانت معروفة
الاسباب . . وناهيك بالعظمة التي ترتقى هذا المرتقى
فمن تلك الخصائص انها قد توصف بالنقيضين في وقت
واحد :

لأنها متعددة الجوانب ، فيراها أناس على صورة ويراها
غيرهم على صورة أخرى ، وربما رأتها العين الواحدة على
اختلاف في الوقتين المختلفين . .

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ،
وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال
للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك . .

ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظر ، ولا
يتأتى تفسيرها لكل مفسر

وهذا اذا سلمت النفوس من سوء النية . . فأما اذا
ساءت النيات وران الهوى على البصائر فلا عجب اذن في
الضلال

ومن خصائص العظمة النبوية في محمد عليه السلام انه
وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه . .
فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال ،
وهو عند أناس آخرين صاحب قسوة تضريه بالقتل واهدار
الدماء البشرية في غير جريرة . وتنزه محمد عن هذا وذاك . .

فاذا كانت شجاعته عليه السلام تنفى الشبهة في رقة
الضعف والخوف المغيب ، فحياته كلها من طفولته الباكرة
تنفى الشبهة في القسوة والجفاء . . اذ كان في كل صلة من
صلاته بأهله أو بمرضعاته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه
مثلا للرحمة التي عز نظيرها في الأنبياء

ولا نقف كثيرا عند الحوادث التي ذكرها المتفصبون
ليستدلوا بها على اهدار الدماء في غير جريمة . فأكثرها لم
يثبت قط ثبوتا يقطع الشك فيه ، ولا سيما القول بتحريض
النبي عليه السلام على قتل عصماء بنت مروان اليهودية
لأنها كانت تهجو الاسلام والمسلمين . فان النبي عليه السلام
قد نهى في قول صريح عن قتل النساء وكرر نهيه في غير
موضع ، حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وان خرجت
للقتال ، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها .

والحادث الوحيد الذي يستحق الالتفات اليه هو مقتل
كعب بن الأشرف الذي كان يهجو المسلمين ، ويقذح في دينهم ،
ويؤلب عليهم الأعداء ، ويأتمر بقتل النبي ، ويدخل في كل
دسيسة تنقض معالم الاسلام . وكان مع قومه بني النضير
معاهدا على أن يحالف المسلمين ، ويحارب من يحاربونهم ،
ولا يخرج لقتالهم ، ولا يقابلهم الا بما يقابل به الخليف حليفه
من المودة والمهونة .

فنقض العهد وزاد على نقضه تأليب العرب مع قومه على
النبي وصحبه ، وأنه رجع الى المدينة «: فشيب بنساء
المسلمين حتى آذاهم » وافترى عليهن وعليهم ما ليس يفتره
رجل شريف وليس يرضاه في غرضه غريب غيور .

ورد في حديث مقتله ان الرهط الذين خرجوا لقتله
انتهوا الى حصنه ، فهتف به أبو نائلة : وكان حديث عهد
بعرس - فوثب في ملحفته . فأخذت امرأته بناحيتهما
وقالت : « انك امرؤ محارب ، وان الضحباب الحرب لا ينزلون
في هذه الساعة ! »

وصدقت امراته حين وصفته بأنه محارب يعامل معاملة
المحاربين وقد حنثوا في أيمانهم ، فلم يكن راعيا لعهدده ولم يكن
له وازع من نفسه ولا من قومه ، ولم يكن مأمونا على المسلمين
وهو لائد بحصنه . . فهو أقل الناس حقا في أمان

وجاء في الخبر أن النبي عليه السلام أقر مقتله ، فعاب
بعض المؤرخين الأوربيين ذلك وحسبوه خروجاً على سنن
القتال يشبه فعلة نابليون الكبير حين أمر باختطاف الدوق
دنجان ومحاكمته بغير حق . . مع ما بين الحادثين من بون
بعيد بيناه من قبل فلا نعود اليه . .

الا أننا نوجز هنا فلا نزيد على أن نشير الى حكم القانون
الدولي في أحدث العصور على من يؤخذون بصنيع معيب
كصنيع ابن الأشرف ، وان لم يبلغ مبلغه من الغدر والكيد
والإساءة الى الأعراض

وذلك هو حكم الأسير الذي ينطق بعهد الشرف الا يعود
الى القتال . فان القانون الدولي يوجب عليه أن يوفى بعهدده
ويوجب على حكومته ألا تندبه الى عمل ينقض ما عاهد
الأعداء عليه ، ويقضى بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى
الحرب اذا شهر السلاح على الذين أطلقوه أو على حلفائهم
المحاربين في صفوفهم ويصح إذن أن يحاكم كما يحاكم
المدنّبون ويقضى عليه بالموت (١)

فقوانين العصر الحديث اذا تعاقب بالموت جريمة أهون من
جريمة كعب بن الأشرف بكثير ، لأنه تجاوز الغدر الى التآلب
والاّثمار وتلب الأعراض

(١) « اوبنهايم الجزء الثاني صفحة ٣٠٢ »

وليس في توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة ، لأن
المرجع فيها الى الضرورة التي أوجبت القصاص وفرضته
على الناس في أحوال السلم بين أبناء الأمة الواحدة ، فضلا
عن أحوال القتال بين الأعداء

أسرى غزوة بدر

ويلحق بقتل ابن الأشرف ما أخذه بعض المستشرقين من
قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر وخروج النبي الى ساحة
الحرب لرؤية صرعى المعركة وغنائمها بعد انتهائها . . فهو أمر
لا يصح الحكم فيه الا بالنظر الى موضعه وموقعه وأشخاصه ،
لأنه ليس بالحكم العام الذي أتبعه الاسلام في جميع الأسرى
وجميع الحروب ، وإنما هي حالة أفراد كانوا معروفين
بتعذيب المسلمين والتنكيل بهم في غير مبالاة ولا نخوة .
وليست هي حالة الأسرى الذين يقعون في أيدي أعدائهم
غير معروفين بماض ولا بحاضر سوى أنهم جند كسائر الجند
الذين يحشدتهم الأعداء . . فقتل الأسرى بعد بدر إن هو
الا قصاص قصاص المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا في أيدي
من يتولى عقابهم من الغالبين . جاز هذا في كل قانون ، وجاز
أن يحاسب المغلوب على جرائمه التي ليست هي من فروض
القتال أو من مباحاته في شيء . . و الفرق بين معاملة هؤلاء
ومعاملة أسير كل ما تعلمه في شأنه أنه جندي لا بغضاء بينك
وبينه قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح ، وليس في
عمله محل للتأثر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه وهو القتال .
الشریف

أما رؤية القتلى في ساحة الحرب ، فقد نسي فيها أولئك
الناقدون أن اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة إنسانية لا غضاضة
فيها . . ما لم تجاوز حدها إلى الفرح برؤية الدماء لمحض
الفرح برؤية الدماء . وهذا ما لم يزعمه أحد من شاهدي
المعركة عن النبي عليه السلام ، ولا ثم عليه كلام أحد من
المشركين أو المسلمين .

ونسي أولئك الناقدون كذلك أن الرجل الذي يرى الدم
في المدينة العصرية ، غير الرجل الذي يرى الدم في حروب
البادية وفي حياة البادية على الأجمال . . ونعني بها حياة
الرعاة التي تتكرر فيها أراقة الدم كل يوم ، وحياة القبائل
التي كانت تغزو وتغزى في كثير من الأيام . .

فانك لا ترمي بالقسوة طبيبا قد ألف النظر إلى الجثث
وأشلائها والأجسام الحية وجراحها . . لأن الطب لن يكون
في الدنيا رحمة من الرحمات أن لم يألّف الأطباء هذه المناظر
ويعلموا جأشهم وهم يفتحون أعينهم عليها ، ولكنك قد ترمي
بالقسوة إنسانا لم تقع عينه على منظر مثلها ثم هي تفاجئه
فلا ينفر منها . وما من رجل عاش في البادية وشهد غزوة
من غزواتها يمكن أن يقال فيه أن ساحة الحرب تفاجئه بما لم
يكن يراه ، أو بما يستلزم النظر إليه قسوة في الطبع
واستراحة إلى رؤية الدماء .

.. كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرا ، لينظروا بعين
النبي إلى عواقب هذه الواقعة التي أوشكت أن تصبح الواقعة
الحاسمة في تاريخ الإسلام . .

كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبي إلى جيشين . .

أحدهما فيه السلاح والخيل والعدد ، والآخر في ثلث من يقاتلونه عدداً ، ويكاد أن يتخرد من كل سلاح غير السيف ومن كل مطية غير الأقدام . .

وكان عليهم أن يلمسوا اشفاق النبي من عاقبة هذه الواقعة ويستمعوا اليه وهو يناشد ربه : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . . . »

وكان عليهم ان ينظروا اليه ، وقد مد يديه وشخص بصره وجمع نفسه في صلاته . . حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبو بكر يردده ويناديه : « بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعده ! وهو لا يلتفت الى سقوط رداؤه ولا الى مناداة صفيه ، لاستغراقه في الدعاء . . »

وكان عليهم ان يعلموا حرص قريش ان يستبقوا رجالا منهم ، يرجعون الى مكة قبل المعركة أو بعدها ليثابروا على مناوأة النبي واعادة الكرة عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد ، وليس الصبر عليه يسير . .

كان على الناقدين ان يعلموا هذا كله ليعلموا ان الشعور بالفرح في مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه ، وانه شعور مطبوع في نفس حية تجاوب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة في مواقف السلم أو مواقف القتال . فأول ما يبادر النفس الحية من شعور مطبوع صادق في ذلك الموقف أن تفتبط بالنصر ، وتخرج من الضيق الى الفرج ، وتنظر في ساحة الحرب الى من قضى فيها من قريش ومن عاد منها الى وكره ليعيد الكرة ويستأنف الايذاء والمكيدة ،

وأن ترى ما هي تلك الأسلاب والغنائم التي أوشكت أن تفتن
بعض المقاتلين لأنها أول شيء شهدوه من نوعه ، ولما يتنزل
حكم الدين في سلب أو غنيمة

إن محمداً رجل حي جياش النفس بدوافع الحياة ، وليس
بناسك مهزول من نساك الصوامع الذين يكتبون في جوانحهم
كل دافعة وكل احساس . . فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة
التي سبقتها كل تلك المخاوف وستلحق بها كل تلك العواقب
أمر لم يكن بالمنتظر من قائد في مثل موقفه ، ولم تكن توجب
الفطرة الإنسانية على المقاتل . . وهو في اللحظة الأولى بعد
الظفر خليق أن يعلم مدى انتصاره ، ومدى ما يتوقعه بعده ،
ومدى ما فعلته الفئة القليلة بالفئة الكثيرة ، ليقين عليه
ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات . وهؤلاء قرأوا الصحف
الحربيون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف يجدون
من واجبهم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء
الفريقين ، ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما ويسجلوا
ما لا غنى عن تسجيله في جميع الحروب . فانصراف محمد
عن ساحة بدر على أثر النصر عمل غريب يخل بمكانة القائد
وبواجب التحقيق والاستفادة من كل ما يفيد

بعد معركة الأحزاب

ونحن في صدد الحديث عن الرحمة والقسوة يحسن بنا
أن نستقصى ما ذكره المؤرخون الأوروبيون من ما أخذ في هذا

الباب ، وأهمه عدا ما قدمناه قتل المقاتلين من بنى قريظة
بعد معركة الأحزاب

فان أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونونه مخالفا
للعرف المتبع في الحروب ، وينسون أمورا لا يصدق الحكم في
هذه المسألة ما لم يذكروها ويستحضروها أتم استحضار .
وهي أن بنى قريظة حشوا في أيمانهم مرات فلا يجدى معهم
أخذ الموائيق من جديد ، وأنهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم
الذين اختاروه ، وأن سعادا . إنما دانهم بنص التوراة الذي
يؤمنون به كما جاء في التثنية : « حين تقرب من مدينة لكى
تحاربها استدعها الى الصلح ، فان أجابتك الى الصلح
وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير
ويستعبد لك . وان لم تسالملك بل عملت معك حربا فحاصرها ،
واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد
السيف ، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة
كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك
الرب الهك » اصحاح ١٠ الى ١٥ تثنية

وينبغى أن يسأل الناقدون أنفسهم بعد هذا : ماذا كان
مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب ؟

فالقضاء الذى قضاه النبى فى بنى قريظة عدل وحكمة
وصواب ، وما من أحد يقضى غير ذلك القضاء وهو مؤمن
على مصير أمة يرحمها من غدر أعدائها ، ومن لديهم فى
خصومتها ، ومن استباحتهم كل منكر فى التربص والوثبة
بعد الوثبة عليها

وان حملة تأديبية واحدة من حملات العصور الحديثة

يحملها قوم مسلحون على قوم عزل يدودون عن أوطانهم
وحقوقهم ، لفيها من البطش والتعذيب ما لم يحدث قط
نظير له في عقاب بنى قريظة ، ولا في جميع الحروب التي
نشبت بين النبي عليه السلام وبين أعداء له ولدينه ، هم
المتفوقون عليه في العدد والثروة والسلاح
ان عبقرية محمد في قيادته لعبقرية ترضاها فنون الحرب ،
وترضاها المروءة ، وترضاها شريعة الله والناس ، وترضاها
الحضارة في أحدث عصورها ، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء
والأعداء .

عبدفرفة ففء السفافة

سياسة الخصوم والأتباع

السياسة على معان كثيرة في العرف الحديث . .
فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم
والعلاقات ، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات
وخطط في أعمالها الخارجية ، ومنها ما يكون بين الراعى
ورعيته أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات .
ولكل معنى من هذه المعانى اصطلاحه في العرف الحديث ،
وان جمعتها كلمة السياسة في اللغة العربية
وقد تولى النبی علیه السلام أعمالا كثيرة مما يطلق عليه
لفظ السياسة في عموم مدلوله . . ولكننا لا نعرف بينها عملا
واحدا هو أدخل في أبواب السياسة ، وأجمع لضروبها ،
وأبعد عن المشاركة في صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ
العلنى أو سائر الصفات التى اتصف بها علیه السلام من
عهد الحديبية في مراحلها جميعا ، منذ ابتداء بالدعوة الى الحج
الى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدي قريش
ففى عهد الحديبية تجلّى تدبير محمد فى سياسة خصومه
وسياسة أتباعه ، وفى الاعتماد على السلم والعهد حيث
يجسنان ويصلحان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث
لا تحسن المسألة ولا تصلح العهود
بدأ بالدعوة الى الحج ، فلم يقصره فى تلك السنة على
المسلمين المصدقين لرسالته . . بل شمل به كل من أراد الحج
من أبناء القبائل العربية التى تشارك المسلمين فى تعظيم البيت

وقيل يومئذ ان غاندى قد تتلمذ فى هذه الحركة للمصلح
الروسى الكبير ليون تولستوى . . . وقيل بل هو احرى ان
يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التى تحرم اذاء
الحيوان فضلا عن الانسان ، قبل ان يشرع ليون تولستوى
مذهبه الجديد

والذين قالوا بهذا الراى الاخير استبعدوا ان يتفق
المسلمون والبرهميون والبوذيون على حركة غاندى وتبشير
بتلك المقاومة السلبية ، لاعتقادهم ان الاسلام قد شرع للقتال
فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين ، من اجتناب
القوة والتزام السلم وترك المقاومة . . .

لكن المثل الذى قدمه النبى صلوات الله عليه فى رحلة
الحديبية ينقض ما توهموه ، ويبين لهم ان الاسلام قد اخذ
من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجرى فى حينه
مع مناسباته واسبابه . . . فلا هو يركن الى السيف وحده ولا
الى السلم وحده ، بل يضع كليهما حيث يوضع ، ويدفع
بكليهما حيث ينبغى ان يدفع . وهو الحكم المتصرف حيث
يختار ما يختار ، وليس بالالة التى يسوقها السلم او الحرب
مساك الاضطرار

وقد خرج النبى الى مكة فى رحلة الحديبية حاجا لا غازيا . .
يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله ، ويثبت
نية السلم بالتجرد من السلاح ، الا ما يؤذن به لغير المقاتلين
فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقرية و حسب . .
بل فصل بين قريش ومن معهم من الاحابيش ، وجعل
الزعماء وذوى الراى يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون
من مسلك فى دفعه او قبوله او مهادنته ، وهو عليه السلام
يكرر الوصاة لاتباعه بالمسالة والصبر منعيا للاتفاق بين

خصومه على قرار واحد ، وقل من أتباعه من أدرك قصده
ومرماه حتى الصفوة المختارين

ولما اتفق الطرفان - المسلمون وقريش - على التعاهد
والتهادن ، كانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها
قريش غاية في الحكمة والقدرة « الدبلوماسية » كما تسمى
في اصطلاح السياسة المحدثين

دعا بعلى بن أبى طالب فقال له : « بسم الله الرحمن
الرحيم »

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش : « أمسك ! لا أعرف
الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم »
فقال النبي : « اكتب باسمك اللهم »

ثم قال : « اكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله
سهيل بن عمرو) »

فقال سهيل : « أمسك ! لو شهدت أنك رسول الله لم
أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك »

وروى أن عليا تردد فمسح النبي ما كتب بيده ، وأمره
أن يكتب « محمد بن عبد الله » في موضع محمد رسول الله «
ثم تعاهدوا على أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه
رده عليهم ، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه ،
وأنه من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه . . ومن
أحب مخالفة قريش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمد
وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام
الذي يليه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف
في قربها ، ولا سلاح غيرها

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه
المشركون وانتصر فيه المسلمون ، لوجب أن يكتب على غير

هذا الأسلوب . . فيعترف المشركون كرها أو طوعا بصفة النبوة ، ولا يردون أحدا من مواليهم أو قاصريهم يذهب الى النبي ويأحق بالمسلمين

ولكنه عهد مهادنة أو عهد « إيقاف أعمال العداء الى حين » كما يسمونه في اصطلاح العصر الحاضر . . فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية في أمثال هذه العهود ، من اثبات صفة المندوبين التي لا ارغام فيها لأحد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين ، ومن حفظ كل لحقه في تجديد دعواه واستئناف مسعاه

فلو أن النبي عليه السلام شرط على قريش أن ترد اليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الاسلامية، ونقض الوصف الذي يصف به المسلمين . . فان المسلم الذي يترك النبي باختياره ليلحق قريشا ليس بمسلم ، ولكنه مشرك يشبه قريشا في دينها وهي أولى به من نبي الاسلام أما المسلم الذي يرد الى المشركين مكرها فانما الصلة بينه وبين النبي الاسلام ، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب . . فان كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه ، وان كان وثيق الدين فبقى على دينه فلا خسارة على المسلمين

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بذلك الشرط الذي حسبته غنما لها وخذلانا لمحمد صلوات الله عليه . . فان المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعاية لهده ، قد خرجوا الى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهي أمان في عهد الهدنة بين الطرفين ، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم الى النبي لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة ، ولا

استطاعوا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا يوم أملوا بشروطهم في عهد الحديبية ، ولو قضى العهد بولاية النبي على من يتفر من مسلمي مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبي بالمحافظة عليه

وتم العهد . . فعرف من لم يعرف ما افاء على الاسلام بعد قليل

فجهر بمخالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه . . واستراح النبي من قريش ، ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل الى عظمائها بالدعوة الى دينه ، وفتح الأبواب لمن يفيدون اليه ممن أنكروا بغى قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للاسلام حربا يتلون فيها بما لا يطيقون

ويوم نزلت الآية الكريمة على اثر اتفاق الحديبية «انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » لم يفقه الكثيرون معناها في حينها ، ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذي حسبوه محض تسليم . . ولكنهم فهموا أي فتح هو بعد سنتين ، وعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف ، وما يشبه الهزيمة في ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر الى بعيد

الفتح المبين

كان في تلك السنة فتح يراه الناظر بعين الغيب ولا يراه الناظر بعينه ، ولكنها سنة واحدة ثم رأى الفتح المبين من

لا يرون بغير العيون . . رأوه وامتلات عيونهم بالنظر اليه ،
فسر قوما وساء آخريين

ففي السنة التالية نادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا
للحج ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ، فخرجوا في شوق
المنطلق بعد منع والمنتظر بعد صبر ، إلا من استشهد في خيبر
وأدركته الوفاة خلال العام . وخرج معهم جمع كبير ممن لم
يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والأطفال ، وساقوا أمامهم
ستين بدنة مقلدات للهدى ، وقد حملوا السلاح والدروع
والرماح وعلى رأسهم مائة فارس يقودهم محمد بن سلمة
فلما انتهى الرسول وصحبه إلى ذي الحليفة قدم الخيل
أمامه ، وعلمت قریش بالنبا ففرعوا وبعثوا بمكرز بن حفص
في نفر منهم فجاءوا يقولون : « والله يا محمد ما عرفت صغيرا
ولا كبيرا بالفدر . . تدخل بالسلاح في الحرم على قومك وقد
شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر : السيوف في
القرب ؟ » فقال عليه السلام : « انى لا أدخل عليهم بسلاح »
قال مكرز : « هو الذى تعرف به . البر والوفاء »

وانما حمل النبی السلاح للحیطة كما قال لصحبه : « ان
هاجنا هائج من القوم كان السلاح قريبا منا » . . . وتركه
في الحراسة على مقربة من مكة حيث يوصل اليه عند الحاجة
اليه

ثم أقبل عليه السلام على ناقته القصواء وجموع المسلمين
محدثون به متوشحون بالسيوف يلبون ويهللون ، وأخذ
عبد الله بن رزاحة بزمام القصواء وهو ينشد :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله

.

يارب انى مؤمن بقيسنله انى رأيت الحق فى قبسوله
وأوشك وقد هزته النخوة أن يصيح فى قریش صيحة
الحرب ، فنهاه عمر رضى الله عنه وأمر النبى أن ينادى ولا
يزيد : « لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ،
وخذل الأحزاب وحده » . فرفع ابن رواحة بها صوته
الجهير ، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جنبات الوادى
القريب ، فيسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعوها ولا يروا
ركب النبى يخطو فى نواحيها

وكان الفتح الذى بصر به عيانا من لم يره يوم الحديبية
بنور البصرة ، وأسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصيا
على الاسلام : فريق منهم بهرهم وفاء النبى بعهدده مع
استطاعة نقضه ، وفريق منهم راعهم سمت الدين ورحم
الاسلام فيما بين المسلمين ، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من
طاعة وتمكين ، وفريق منهم علموا أن العاقبة للاسلام فجنحوا
الى طريق السلامة والسلام ، وحسبك أن عمرة القضاء هذه
قد جمعت فى آثارها من أسباب الاقناع بالدعوة المحمدية
ما أقنع خالد بن الوليد وعمر بن العاص ، وهما فى رجاحة
الخلق والعقل مثلان متكافئان ، وان كانا لا يتشابهان

وهكذا تجلت عبقرية محمد فى سياسة الامور كما تجلت فى
قيادة الجيوش . فكان على أحسن نجاح فى سياسته اذ نادى
بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعدده وعدته ، واذ دعا المسلمين
وغير المسلمين الى مصاحبته فى رحلته ، واذ توخى ما توخى
من طريقة المسالمة واقامة الحجة فى انفاذ عزمته ، واذ قبل
العهد الذى كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته ، واذ نظر
الى عقباه ووصل به الى القصد الذى توخاه

عقبية محمد الإدارة

ملكات شخصية

في الاسلام احكام كثيرة مما يدخل في تصرف رجال الادارة
كما نسميهم اليوم

وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات ، كالمساواة والمبايعة
والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شئون المعيشة
الاجتماعية يقتدى بها المشترعون في جميع العصور

ولكننا لا نريد بما نكتب عن النبي أن نسرده احكام الفقه
ونبسط وصايا الدين ، فهي مشروحة في مواطنها لمن شاء
الرجوع اليها

وانما نريد أن نعرض لاعماله ووصاياه من حيث هي ملكات
شخصية وسلائق نفسية ، تلازمه حيث كان مؤديا لرسالة
الدين ، أو مؤديا لغير الرسالة من سائر أعمال الانسان

كذلك لا يعنينا مثلا أن نتكلم عن « الادارة » كأنها نصوص
المنشورات و « اللوائح » التي تدار بها الدواوين وتجري
عليها تفضيلات الحركة في مكاتب الحكومة ، فان هذه وما اليها
هي أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين

وانما نعني الملكة الادارية من حيث هي أساس في التفكير
من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الادارة كلها على أسس
قوية ، ثم يدع لغيره تفصيلات الاضابير والأوراق

فليس في وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعة
أن يؤسس ادارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل
كبير الهمة

أما السليقة المطبوعة على انشاء الادارة النافعة فهي
السليقة التي تعرف النظام ، وتعرف التبعة ، وتعرف

الاختصاص بالعمل ، فلا تسنده الى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه

وقد كانت هذه السليقة في محمد عليه السلام على اتم ما تكون

كان يوصى بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعي أو العمل المجتمع الذي يحتاج الى تدبير . ومن حديثه المأثور : « اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » . ومن أعماله الماثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمر وخليفة للخليفة اذا أصيب من تقدمه بما يقعه عن القيادة . وكان قوام الرئاسة والامامة عنده شرطان هما جماع الشروط في كل رئاسة ، وهما الكفاءة والحب : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين »

و«أيما رجل أم قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه» وكان الى عنايته باسناد الامر الى المدير القادر عليه حريصا على تقرير التبعات في الشؤون ما كبر منها وما صغر ، على النهج الذي أوضحه صلوات الله عليه حيث قال : « كلکم راع وکلکم مسئول عن رعیتہ . فالأمر الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيتہ ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فکلکم راع وکلکم مسئول عن رعیتہ »

وقد كانت أوامر الاسلام ونواهيہ معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارا كانوا أو مهاجرين ، ولكنه عليه السلام لم يترك أحدا يدعى لنفسه حقا في اقامة الحدود واكره

الناس على طاعة الاوامر واجتناب المنواهي غير من لهم ولاية الامر وسياسة الناس

فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلا من المشركين غضب عليه السلام ، وقال فيما قال من حديثه المبين : « . . . فمن قال لكم ان رسول الله قد قاتل فيها فقولوا ان الله قد احلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة . . . » ولما اراد ان يصادر الخمر نهج في ذلك منهجا يقصد به الى التعليم والاستئنان كما جاء في رواية ابن عمر حيث قال : « امرني النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان آتية بمدينة ، فأتيته بها . فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها فقال اغد على بها . ففعلت ، فخرج بأصحابه الى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام . فأخذ المدينة مني فشقق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها ، وأمر الذين كانوا معه ان يمشوا معي ويعاونوني ، وأمرني ان آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر الا شققته ففعلت ، فلم أترك في أسواقها زقا الا شققته »

وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبي الذي يبين الحرام ويبين الحلال

فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين من تفقه منهم ومن لم يتفقه في الدين ، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغي ان تكون في يد ولي المسلمين لا في يد كل فرد يعرف الحلال والحرام . وليست المسألة هنا مسألة تحریم وتحليل ولكنها مسألة ادارة وتنفيذ في مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح والأهواء ، ولا يصاب ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطان ، فلم يكتف النبي عليه

السلام بصريح التحريم في القرآن ، ولا اكتفى باسناد الامر الى غير معروف الصفة في تنفيذ الأحكام ، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلا بعينه وأناسا بأعينهم أن يمضوا في اتمام عمله ، ولم يجعل ذلك أذنا لمن شاء أن يفعل ما شاء

وما أكثر ما سمعنا في أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام ، وتوطيد أركان الشريعة والقانون ، ولكننا لا نعرف في كل ما قيل كلاما هو أجمع لوجوه الصواب في هذه المسألة من قول النبي : « السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت : « . . . ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » . ومن قوله : « الامام الجائر خير من الفتنة ، وكل لا خير فيه . وفي بعض الشر خيار » . ومن قوله : « ان الأمير اذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » الى أحاديث في هذا المعنى هي جماع الضوابط التي تقوم عليها الإدارة الحكيمة ، والخطط السليمة المستقيمة ، بين أمر ومأمور

نظام وفوق النظام سلطان ، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل لا شك فيه ، وجميع أولئك على ساحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء

هذا الالهام النافذ السديد في تدبير المصالح العامة ، وعلاج شئون الجماعات ، هو الذي أوحى الى الرسول الامى قبل كشف الجرائم ، وقبل تأسيس الحجر الصحي بين الدول ، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون ، أن يقضى في مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذي لم يأت العلم بعده بمزيد ، حيث قال : « اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، واذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »

فتلك وصية من ينظر في تدبيره الى العالم الانساني بأسره

لا الى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد . اذ ليس
أصون للعالم من حصر الوباء في مكانه ، وليس من حق مدينة
ان تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعريض المدن
كلها لعدواها

تدبير الشئون العامة

على أن الادارة العليا انما تتجلى في تدبير الشئون العامة
حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع، فليست الإدارة
كلها نصوصاً وقواعد يجري الحاكم في تنفيذها مجرى الآلات
والموازين التي تصرف الشئون على نسق واحد ، ولكنها في
كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من
الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك

وذلك هو المجال الذي تمت فيه عبقرية محمد في حلول
التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام . فما عرض له تدبير
أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها الا أشار فيه
بأعدل الآراء ، وادناها الى السلم والارضاء

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بإقامة
الحجر الأسود في مكانه، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة،
ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بإيثار إحدى القبائل على غيرها
ولو جاء الايثار من طريق المصادفة والاقتراع ، فأشار محمد
بالرأى الذي لا رأى غيره لحاضر الوقت ولقبل الغيب المجهول .
فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم
في طرف من أطرافه ، وكان من قسمته هو على غير خلاف
بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان ، وأن يتسلف الدعوة
وهي مكنونة في طوايا الزمان ، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا
ولا سلم من عدوان وشنآن

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة الى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله ، وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتميز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة . . . فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك ، وفصلت فيما لو فصل فيه انسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها ، ولو أمنت في تلك الساعة على دخل وسوء طوية

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناسا من أهل مكة الضعيف ايمانهم على أناس من الأنصار الذين صدقوا الاسلام وثبتوا على الجهاد ، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه الى ارضائهم بالحجة التي لا تغلب من يدين بها ، بل تريه أنه هو الغالب الكاسب وأنها تصيب منه المقنع والاقناع في وقت واحد : « أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمراء من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . . . »

كلام مدير فيه الادارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين . . . فهو مدير حين تكون الادارة تدبير أمور ، ومدير حين تكون الادارة تدبير شعور ، وهو كفييل الا يلى مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق اليها الاختلال ، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة ، وبالاختصاص وبالسباحة ، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال ، أو لخلل في ادارة الاعمال .

السيف

« اللهم هل بلغت ! »

هذه هي اللازمة التي زودها النبي في أطول خطبه الأخيرة، وهي خطبة الوداع .

وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها ، لأنها لحصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات . فما كانت حياة النبي كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله عليه السلام وهو يجود بنفسه « جلال ربي الرفيع فقد بلغت ! »

ولصدق هذه الدلالة نرى أن السمة الغالبة على أسلوب النبي في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى . بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هي منها بمثابة الفروع

وكلام النبي المحفوظ بين أيدينا أما معاهدات ورسائل كتبت في حينها ، وأما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها وروعت الدقة في المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع

والإبلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعاً ، حتى ما يجري منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى الرؤوسين أو مجرى الدعاء الذي يلقيه المسلم ليدعو الله على مثاله

انظر مثلاً إلى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال وهي كما جاء في مختار مسلم

« ... بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل

فانطبقت عليهم . فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها ، لعل الله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم : اللهم انه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم . فاذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى . وانه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما . فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقممت عند رؤسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى . فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر . فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء

« ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء »
« وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت اليها نفسها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار . فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها » فلما وقعت بين رجلها قالت : يا عبد الله ! اتق الله ولا تفتح الخاتم الا بحقه . فقممت عنها ، فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة . ففرج لهم
« وقال الآخر : اللهم انى كنت استأجرت أجيرا بفرق (١) أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقه فرغب عنسه . فلم أزل أزعه حتى جمعت منه بقرا ورعائها فقال : اتق الله ولا تظلمنى حقى ! قلت : اذهب الى تلك البقر ورعائها فخذها فقال : اتق الله ولا تستهزى بى !

(١) ائاء يسع ثلاثة آصع

فقلت : انى لا أستهزى بك • خذ ذلك البقر ورعائها !
فأخذه فذهب به

فان كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا
ما بقى
« ففرج الله ما بقى »

توجيه الأمراء والولاة

هذا أسلوبه عليه السلام فى التعليم بالقصص
فانظر الى أسلوبه فى توجيه الأمراء والولاة كما جاء فى
مختار مسلم حيث قال : « كان رسول الله اذا أمر أميرا على
جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من
المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا باسم الله فى سبيل الله •
قاتلوا من كفر بالله • اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا
ولا تقتلوا وليدا • واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى
ثلاث خصال ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم •
ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، وأخبرهم
أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، فان أبوا أن يتحولوا
منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم
فى الغنيمة والفى شىء ، الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان
هم أبوا فسلهم الجزية • فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف
عنهم • فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم
« وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة
الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه • ولكن
اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فانكم ان تخفروا ذممكم

وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .
« وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم
الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فأنت
لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا »
وهذا أسلوبه عليه السلام في تعليم الولاة بالأوامر
والوصايا

فانظر الى أسلوبه في الرسائل من رسالته الى النجاشي
حيث قال :

« سلم أنت . فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ،
الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن
مريم زوج الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة
فحملت بغيبي فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم
بيده ونفخه »

« واني أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالة على
طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فاني رسول الله
وقد بعثت اليك ابن عمي جعفرًا ونفرا معه من المسلمين ،
فاذا جاءك فأقرهم ودع التجبر . فاني أدعوك وجنودك الى
الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي
« والسلام على من اتبع الهدى »

المعاهدات والمواثيق

أما أسلوبه في المعاهدات والمواثيق فهذا طرف مما جاء
في كتابه عليه السلام بين المهاجرين والانصار واليهود
« ... المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم

وهم يقدون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين
« وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلم الأول ، وكل
طائفة تفدى عانيها بالقسط بين المؤمنين . »

« وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلم الأولى ، وكل
طائفة تفدى عانيها بالقسط بين المؤمنين . »

« وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلم الأولى ، وكل
طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . . »
وهكذا الى آخر الكتاب .

تلك نماذج من كلام النبی فی أربع أبواب مختلفات، تتفرق
موضوعاتها كما تتفرق القصص والأوامر والرسائل
والمواثيق ، ولكنها كلها موسومة بسمة واحدة لا اختلاف
فيها ، وهي سمة الإبلاغ أو البلاغ المبين . وأصدق ما يقال
في تعريفها ما قيل في تعريف الخط المستقيم عند أهل
الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين .

فليس أقرب من هذا الأسلوب في إبلاغ الغرض منه
لاكلفة ولا غموض ولا انحراب ، وقلة الغريب - بل ندرته
- في كلام النبی أجدر الأمور بالملاحظة في إقامة المثل
والنماذج لأساليب البلاغة العربية .

فمحمد العربي القرشي الناشئ في بني سعد العالم
بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية في أطراف
الجزيرة ، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو
يحتاج تبيانہ الى مراجعة . . . وسر ذلك أنه يريد أن يبلغ
أو يزيد أن يصل الى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين
السامع حاجزًا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن
ذلك ما روي عنه عليه السلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثاً

لتعقل عنه ، وأنه كان يبغض التكلف والاعتزاز بالبلاغة كما قال : « ان الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها »

وقد عرف عن النبي عليه السلام فى حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام معرضا عن اللغو لا يقول الا الحق وان قاله فى مزاح

فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة . فاذا كرر اللفظ بعينه كما جاء فى بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذى لا يحصى عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه . فهو أيضا سمة من سمات البلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق ، أو على سبيل الاعادة التى روى أنه كان يتوخاها عليه السلام أحيانا ليعقل عنه كلامه

وفى كتابه الى النجاشى زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الاشارة الى المسيح وأمه لم تؤثر فى الكتب الأخرى ، ولكنها ألزم ما يلزم فى خطاب ملك مسيحي يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح فى دينه وفى دين المسلمين الذى يدعى اليه ، وكيف يبتغى طريق المقابلة بين العقيدتين اذا شاء *

ما على الرسول الا البلاغ

وهذا هو البلاغ فى التعبير : كل كلمة تصل الى سامعها ، وكل كلمة مقصودة بمقدار

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة متعمل فى ابتغاء التأثير ، الا البلاغ الذى يليق بالرجولة والكرامة ، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الاعراض

سجع كحلية الذهب

وكان عليه السلام يكره « سجع الكهان » الذي يخدعون به السامع ليوهموه أنه يستمع الى طلاس السحرة والشياطين ، ولكنه لم يكن يابى السجع بثة ولا يخلو كلامه من سجع يأتى على السجية ، ويغلب أن يكون ذلك فيما يرتل علانية كالأذان وما هو فى حكمه ، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق » أو قوله : « ان الله حرم عليكم عقوق الأمهات وواد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال »

ومذهبه فى هذه الحلية اللطيفة بمذهبه فى كل حلية تليق بالرجل : فحولة فى القول وفحولة فى الزينة ، فسجعه عليه السلام كحلية الذهب التى يليق بالرجل أن يتحلى بها ، ولا مزيد

كتب اليه أبو سفيان كتابا يقول فى آخره :

« ... نريد منك نصف نخل المدينة ، فإن أجبتنا الى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار

تجاوبت القبائل من نزار لنصر اللات فى البيت الحرام وأقبلت الضراغم من قريش على خيسل مسومة ضرام فأجابه بكتاب جاء فيه : « وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتم . فوالله ما لكم

عندى جواب الا اطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا
ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام ، وبفلق
الهام ، وخراب الديار ، وقلع الآثار . . .

فهذا السجع فى هذا المقام أصلح لخطاب الجاهلين ، لأنهم
يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين ، كما يعرفون منه معنى
المناجزة والتخويف . ومن هنا أقر النبى نص الحلف الذى
كان بين جده وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم
يجعلونهما موثقا تعقد به المواثيق وتؤكد به الحرمات .
وهذا نصه :

« باسمك اللهم . هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة
حلفا جامعا غير مفرق : الأشياخ على الأشياخ ، والأصاغر
على الأصاغر ، والشاهد على الغائب . قد تعاهدوا وتعاهدوا
أوكد عهد ، وأوثق عقد ، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت
شمس على ثبير ، وحن بفلاة بعير ، وما أقام الأخشبان (١)
واعتمر بمكة أنسان : حلف أبد لطول أمد ، يؤيده طلوع
الشمس شدا ، وظلام الليل مدا . وأن عبد المطلب وولده
ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون ،
على عبد المطلب النصره لهم بمن تابعه على طالب ، وعلى خزاعة
النصرة لعبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب فى
شرق أو غرب . أو حزن أو سهل ، وجعلوا الله على ذلك
كفيلا ، وكفى به حميلا . . . »

هذه أمثلة السجع الذى فاه به الرسول أو أقره من كلام
غيره ، وما عداه من تجميل الكلام فهو تجميل الإبلاغ الذى
لا كلفة فيه

(١) جبلا مكة

وقد أعانه عليه السلام على أسلوب الإبلاغ أن الذين كانوا يستمعون اليه إنما كانوا يستمعون إلى كلام نبي محبوب مطاع . فهو نافذ في نفوسهم بغير حيلة ، مستجمع لأسماعهم بغير تشويق قائم بالكفاية الوسطى التي لا حاجة بها إلى إفراط ولا خوف عليها من تفريط

أما رسائله إلى الملوك والأمراء - ممن لم يسلم ولم يهتد - فإنما كانت للإبلاغ أول الأمر ثم يأتي بعدها التفسير والتفصيل على السنة المرشدين والموكلين بالإجابة فيما يسألونه عنه ، فهي كذلك قائمة على كفاية الإبلاغ ، تلك الكفاية الوسطى التي لا إفراط فيها ولا تفريط

ونقول إن الأمرين أعانا النبي على أسلوبه المبلغ البليغ ولا نقول انهما أنشأه وأوحياه . فإن الحوار القليل الذي حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل استفاضة الدين وإقبال الأتباع المؤمنين قد كانت له صبغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع . لأن مصدر الفحولة في الإبلاغ ثقته بقوله لا ثقة المستمعين اليه . فكلامه كله نسق واحد في هذه الحصلة ، وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة ، وسياقه كله سياق مطواع لا احتيال فيه ، ووصاته لمن يقتدى به أن يقصر الخطبة ويقل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة

ولا يفهم من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر في اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس . فقد كان عليه السلام يلاحظ هذا الاختلاف ويعطيه حقه كما كان يفعل حين يتكلم على قوس وهو يخطب في الحرب ، أو يتكلم على عصا وهو يخطب في العظات ، وكان يبدو على

وجهه ما يختلج بصدرة اذا غضب أو أنذر « فكان اذا خطب
احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش :
صبحكم مساكم »

أسلوب عصرى

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبى - كتابة وخطابا -
أسلوبا عصرىا يقتدى به المعاصرون فى زماننا هذا وفى كل
زمان . . . لأن الأسلوب الذى يخرج من الفطرة المستقيمة
هو أسلوب عصرى فى جميع العصور ، ويخطئ من يحسب
الوصل بين الجمل شرطا للكلام العربى القديم والفصل بينها
علامة من علامات الأساليب المبتدعة فى الزمن الأخير ،
ويخطئ كذلك من يحسب قبول الكلام لإشارات الترقيم
علامة أخرى من علامات هذه الأساليب . فإليك الحديث
الذى نقلناه آنفا وهو مثل من أمثلة كثار حيث يقول عليه
السلام : « ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب
الله ؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وإن
كان مائة شرط : قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما
الولاء لمن أعتق »

هكذا الحديث رضى البلاغة العربية فى وصله وفصله ،
ورضى الأسلوب العصرى فى إشارات توقيمه ، وآية على
خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو
من التفريق

رأى النبي في الشعر

وقد نقلت إلينا تعقيبات معدودة عن رأى النبي في الشعر والشعراء لا تدخل في النقد الفني وتدخل في كلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة . ومنها قوله : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد » ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، وقوله عن امرئ القيس أنه صاحب لواء الشعراء إلى النار ، وأنه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود ، فكان يقول مثلاً « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى ، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد بنى الحسحاس : « كفى الشيب والاسلام للمرء ناهياً » قدم كلمة الاسلام فقال : « كفى الاسلام والشيب للمرء ناهياً » لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون

وقد استحسن ما قيل من الشعر في النضح عن الاسلام والذود عنه وعن آله ، فكانت آراؤه هذه وشبهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام ، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح ، ولم يبعثوا ليلقنهم دروسهم في قواعد النقد والانشاء

جوامع الكلم

الا أن الابلاغ أقوى الابلاغ في كلام النبي هو اجتماع

المعساني الكبار في الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم
الوافية في بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون في مجلدات
ومن أمثلة ذلك علم السلوك في الدنيا والدين وقد جمعه
كله في أقل من سطرين قصيرين من قوله : « احث لدنياك
كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »
ومن أمثلته علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله :
« كما تكونوا يول عليكم »

فأي قاعدة من القواعد الأصيلة في سياسة الأمم
لا تنطوي بين هذه الكلمات ؟

ينطوي فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها لا يعفيها من
تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالاكراه ،
لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه ، والاكراه ضعفها الذي
تلقى جزاءه

وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال
التي تعلنها الحكومة ، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف
الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا
سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف
قيد من النظم والأشكال

وينطوي فيها أن الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل ،
فلا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم • وأحرى ألا
يغير الوالي قوما حتى يغيروا هم قبل ذلك
وينطوي فيها « أن الأمة مصدر السلطات » على حد التعبير
الحديث

وينطوي فيها أن الأمة تستحق الحكم الذي تصبر عليه
ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال

وذلك هو الابلاغ الذي ينفذ في وجهاته كل نفاذ



ويلحق بهذا في العلم بالتبعات قوله عليه السلام : «أشد
الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»
فالمزايا الانسانية واجبات وأعباء وليهت بالمتع والأزياء،
وعلم الانسان بالخير والشر يفرض عليه الفرائض التي يبتلى
بها ، ولا يهنئه بالراحة التي يصبو اليها . وهو محسوب
عليه وكذلك ذكاؤه محسوب عليه

وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق
والاجتماع مما لا يتناوله الإحصاء في هذا المقام

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء
وكان بليغا مبلغا على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة
والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين ، بل قدوة
المرسلين

محمد الصديق

عطوف ودود

إذا كان الرجل محبا للناس ، أهلا لحبهم إياه ، فقد تمت له
أداة الصداقة من طرفيها

وإنما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة
الإنسانية ومن سلامة الذوق ، ومتانة الخلق ، وطبيعة الوفاء .
فلا يكفي أن يحب الناس ليحبوه . لأنه قد يحبهم وفي
ذوقه نقص ينفرهم منه ويذهدهم في حبه

ولا يكفي أن يكون محبا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة
مبلغها . فقد يكون محبا محبوبا حسن الذوق ثم يكون نصيبه
من الخلق المتين والطبع الوفي نذرا ضعيفا لا تدوم عليه صداقة ،
ولا تستقر عليه علاقة

إنما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية ، والذوق السليم ،
والخلق المتين ، وقد كان محمد في هذه الخصال جميعا مثالا عاليا
بين صفوة خلق الله

كان عطوفا يرأم من حوله ويودهم ويدوم لهم على المودة
طول حياته ، وإن تفاوت ما بينه وبينهم من سنن وعرق
ومقام

كان صبيا في الثانية عشرة يوم سافر عمه ، فتعلق به
حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه في سفره
وكان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من
لا ينسى

وليس في سجل المودة الإنسانية أجل ولا أكرم من حنائه
على مرضعته حليلة ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين ،
فيلقاها هاتفا بها : أمي ! أمي ! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها

بيده . . . كانه يذكر ما لذلك الشدى عليه من جميل ، ويعطيها من الابل والشاء ما يغنيها في السنة الجداء

ولقد وفدت عليه هوازن وهى مهزومة فى وقعة حنين وفيها عم له من الرضاعة . . . لأجل هذا العم من الرضاعة تشفع النبى الى المسلمين أن يردوا السبى من نساء وأبناء ، واشترى السبى ممن أبوا رده الا بمال

وحضنته فى طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته ، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من أمر بناته ورحمه ، فقال لأصحابه « من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن . . . وما زال يناديها يا أمه يا أمه كلما رآها وتحدث اليها ، وربما رآها فى وقعة قتال تدعو الله وهى لا تدرى كيف تدعو ولكنها الأعجمية ، فلا تنسى الواقعة الحازبة أن يصفى اليها ويعطف عليها

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع . فما نهر خادما ولا ضرب أحدا ، وقال أنس : « خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، ولا قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ »

وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفسا ، صافى القلب اذا كره شيئا رؤى ذلك فى وجهه ، واذا رضى عرف من حوله رضاه

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة ولم يقصره على ذوى الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوى الرحم . فكان يصفى الاناء للهرة لتشرب ، وكان يواسى فى موت طائر يلهو به أخو خادمه ، وأوصى المسلمين « اذا ركبتم هذه

الدواب فأعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين «
وكرر الوصاية بها أن « اتقوا الله في البهائم المعجمة فاركبوها
صالحة واكلوها صالحة »

وقال : « ان الله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس
ركى يلهث قد كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها فأوثقت به
بخمارها ، فنزعت له من الماء ففقر لها بذلك »

وقال في هذا المعنى : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها
فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض »

لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كانه من الأحياء ، فكانت
له قصعة يقال لها الفراء . وكان له سيف محلى يسمى
ذا الفقار ، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات
الفضول ، وكان له سرج يسمى الداج وبساط يسمى الكز
وركة تسمى الصادر، ومرآة تسمى المدلة، ومقراض يسمى
الجامع ، وقضيب يسمى المشوق

وفي تسمية تلك الاشياء بالأسماء معنى اللفة التي تجعلها
أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين ، كأن لها
« شخصية » مقربة تميزها بين مثيلاتها ، كما يتميز الأحياء
بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب



هذه العاطفة الانسانية التي رحبت حتى شملت كل ما
أحاطت به وأحاط بها لم تكن هي كل أداة الصداقة في تلك
النفوس العلوية ، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة
ونبلا ويتمثل - فيما يرجع الى علاقات النبی بالناس - في
رعاية شعورهم اتم رعاية وأدلهما على الكرم والجود

« كان اذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه ، فلم

ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه . واذا
لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله اياها فلم ينزع يده
منه حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده منه »

« وكان اذا ودع رجلا أخذ بينده فلا يدها حتى يكون
الرجل هو الذى يدع يده »

« وكان أرحم الناس بالصبيان والعيال » واذا
قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته »

وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها . وأصبر الناس
على أقذار الناس »

يحفظ مغيبيهم كما يحفظ محضرهم ويقول لصحبته : « من
اطلع فى كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع فى النار »

ومع العاطفة الانسانية والذوق السليم والأدب الكريم :
سمت جميل ونظافة بالغة وحرص على أن يراه الناس فى

أجل مرآه

ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق ؟
وحسبك من ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم
يناصبون العداة ، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد فى سربه حتى
رد الأمانات الى أصحابها ، وقد يكون فى ردها ما ينبههم الى
خروجه يأخذ عليه سبيل النجاة ، وهذا الى اشتهاه
بالأمانة فى صباه حتى سمى بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة
تنبغى لداعيها أمثال هذه الصفات .

كل هذه المزايا النفسية - بل بعض هذه المزايا النفسية
- خليق أن يتم لصاحبه أداة الصداقة أو فى تمام ، وأن يجعله
محبا لمن حوله جديرا منهم بأحسن جب وولاء . فلم يعرف
فى تاريخ العظمة - لا بين الأنبياء ولا غير الأنبياء - انسان
ظفر بنخبة من الصداقات على اختلاف الاقدار والبيئات

والأمزجة والأجناس كالتى ظفر بها محمد ، ولم يعرف عن
انسان انه أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه
الحب الذى أحيط به هذا القلب الكبير

تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب حديث زيد بن حارثة
الذى خطف من أهله وهو صغير ثم اهتدى اليه أبوه واهتدى
هو الى أبيه على لهفة الشوق بعد يأس طويل ، فلما وجب
أن يختار بين الرجعة الى آله وبين البقاء مع سيده « محمد »
اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد ، وشق عليه
أن يحتجب عن ذلك القلب الذى غمره بحبه ومواساته ،
وهو ضعيف شريد لا يرى ذويه ولا يدرى من هم ذوهه .

وكان لا يغنى من لازموه أن يلزموه فى الحياة حتى يشقوا من
ملازمتهم اياه بعد الممات . فضعف مولاه ثوبان ونحل جسمه
وألح عليه الحزن فى ليله ونهاره ، فلما سأله السيد العطوف
يستفسره علة حزنه ونحوه قال فى طهارة الأبرار : « انى اذا
لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت
الآخرة حيث لا أراك هناك لانى ان دخلت الجنة فانت تكون فى
درجات النبيين فلا أراك » ورويت هذه القصة فى أسباب
نزول الآية الكريمة : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع
الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقا »

وأدرك الموت بلالا فأحاط به أهله يصيحون واكرباه وهو
يجيبهم : « واطرباه غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه . . . »
وقد عشنا مما تقدم بحب الصداقة بين الانسان والانسان
لأننا لم نقصد حب المؤمن لنبيه فى هذا الباب . فقد بلغ من
امتلاء قلوب المسلمين والمسلمات بهذا الحب أن المرأة كانت
تجتمع أبناء المعركة فينمى اليها خاصة أهلها وهى تسترجع

وتعرض عن هذا لتسأل عن النبي وتهتم بسلامته قبل
اهتمامها بسلامة الاخوة وبنى الأعمام . الا أننا عنيينا محبة
الصداقة في هذا الباب لأنها هي المحبة التي جعلت كثيرا من
الناس يؤمنون بمحمد لمحبتهم اياه واطمئنانهم اليه ، فكانت
سابقة في قلوبهم وارواحهم لحب العقيدة والايمان

عظمة العظما

ان عطف العظيم على الصغير حتى يستحق منه هذا الحب
لفضيلة يشرف بها مقام العظيم في نظر بنى الانسان
ولسكن قد يقال ان استحقاق العظيم أن يحبه العظماء
لأشرف من ذلك رتبة وأدل على حظه الجليل من فضائل التفوق
والرجحان . . . وهذا صحيح لا ريب فيه
وهنا أيضا قد تمت لمحمد معجزته التي لم يضارعه فيها
أحد من ذوى الصداقات النادرة

فأحدثت به نخبة من ذوى الأقدار تجمع بين عظمة الحسب
وعظمة الثروة وعظمة الراى وعظمة الهمة ، وكل منهم ذو
شأن في عظمتة تقوم عليه دولة وتنهض به أمه ، كما اثبت
التاريخ من سير أبى بكر وعمر وخالد وأسامة وابن العاص
والزبير وطلحة وسائر الصحابة الأولين
وربما عظم الرجل في مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء
والمريدون من النابغين في تلك المزية ، كما احاط الحكماء
بسقراط والقادة بنابليون

بل ربما احاط الصالحون بالنبي العظيم كما احاط الخواريون
بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة

أما عظمة العظمتان فهي تلك التي تجذب إليها الأصحاب
النايغين من كل معدن وكل طراز ، وهي التي يتقابل في حبها
رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبي بكر وعلي ، وبين
عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن الغاصق ،
كلهم عظيم وكلهم مع ذلك مخالف في وصف العظمة لسببها
تلك هي العظمة التي اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى
أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق ، وأصبح فيها قطب
جاذب لكل معدن ، وأصبحت تجمع إليها البأس والحلم ،
والخيلة والصراحة والألمعية والاجتهاد ، وحنكة السن وحمية
الشباب

تلك هي بلا ريب عظمة العظمتان ، ومعجزة الإعجاز في باب
الصدقات

وما استحقها محمد إلا بنفس غنيت بالحب وخلصت له
حتى أعطت كل محب لها كفاء ما يعطيها : مودة بمودة وصفاء
بصفاء ، وعليها المزيد من فضل التفاوت في الأقدار
ولقد كان صاحب الفضل على أصفياه جميعا بما هداهم
إليه من نور العقل ونور البصيرة ، وهما أشرف من نور البصر
لأنه نعمة يشترك فيها الإنسان والعجماء ، ونور العقل
ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الإنسان . ومع هذا كان
يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبي بكر « ما أحد
أعظم عندي يدا من أبي بكر : وأسأتى بنفسه وماله وأتكحني
ابنته » وكما قال عن أبي بكر وعمر : « أبو بكر وعمر مني
بمنزلة السمع والبصر » وكما قال عن علي : « علي أخى في
الدنيا والآخرة » وكما قال عن بعض أصحابه : ان الله تعالى
أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم : علي منهم ، وأبوذر ،
لستبشاد ، وسلمان » وكما قال عن الانصار جميعا وهو في

مرض الموت : « استوصوا بالأنصار خيرا . انهم عيبتى التى
أويت اليهم ، فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم »
... وغير ذلك كثير عن الصحابة كافة وعن بعضهم مذكورين
باسمائهم



على أننا نلمس دلائل هذا الفؤاد الرحب وهذا العطف
الانسانى الشامل فى معاملته لأعدائه وشائئيه فضلا عن
معاملته للأصفياء ، ومن ليس بينهم وبينه عداة ولا صفاء
فما ثار من أحد أساء اليه فى شخصه ، وقد عفا عن
زجل هم بقتله وهو نائم ورفع السيف ليهوى به فسقط
من يده على كره منه ، وما حارب قط أحدا كان فى وسعه
أن يسأله ويحاسنه ويتقى شره

ومعاملته لعبد الله بن أبى الذى كان المسلمون يسمونه رأس
النفاق مثل من أمثلة الاغضاء والصفح والجميل . فقد عاهد
وغدر ثم عاهد وغدر وعاش ما عاش يكيده للنبي فى سره
ويمالىء عليه أعداءه ، وشاع أن النبي عليه السلام قضى بقتله
فتغدم ابنه وقال له : « يا رسول الله ، انه بلغنى أنك تريد
قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فمرنى
به فأنا أحمل اليك رأسه . فوالله لقد علمت انخرج ما كان
بها من رجل أبر بوالده منى ، وأنى لأخشى أن تأمر به غيرى
فيقتله فلا تدعنى نفسى انظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس
فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار »

فأبى النبي أن يقتله وآثر الرفق به ، وزاد فى افضاله
واجماله فكافأ الولد خير مكافأة على خلوص نيته وإيثاره

بدينه على البر بابيه . فأعطاه قميصه الطاهر يكفن به أباه
وصلى عليه ميتا ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه ، وقد
حاول عمر أن يثنيه عن الصلاة على ذلك العدو الذى آذاه
جهد الايذاء فذكر الآية : « . . . استغفر لهم أولا تستغفر
لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . . . »
فقال « لو أعلم انى ان زدت على السبعين غفر له زدت »



هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة
ما أعجب اتهامها بالقسوة على السنة بعض المؤرخين الأوربيين !
ما أعجب اتهامها بالقسوة لأنها دانت أناسا بالموت كما يدين
القاضى مجرما بذنبه وهو من أرحم الرحماء !
ما أعجبهم اذ يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذى
استوجب العقوبة كما يستوجب السبب النتيجة
وأى ذنب ؟ ذنب لو قوبل به غير محمد لأراق فيه أنهارا
من الدماء وله حجة من سلطان الدنيا والآخرة
فلا نذكر استهزاء المشركين به واعنائتهم إياه والقاءهم عليه
القدر والحجارة وائتمارهم بحياته وحياة أصحابه وخراجهم
المسلمين من ديارهم الى أقصى الديار ، ولا نذكر العناد
والاغظة والاستشارة لغير جريرة الا أنهم دعوا الى عبادة
الله والتحلّى بمكارم الأخلاق وترك عبادة الأصنام وترك الرذيلة
لا نذكر شيئا من هذا فهو أطول من أن يحصيه هذا
الكتاب ، ولكننا نذكر حادثا واحدا تجمع فيه من اللؤم ما
تفرق فى كثير غيره ، وذلك حادث الرسل الأربعين - وقيل
السبعين - الذين قتلوا فى بشر معونة ولا ذنب لهم الا أنهم

ذهبوا تلبيةً لدعوة الداعين ليعلموا من ينشد علم القرآن
والدين ، غير مغضوب عليه

فماذا كانت دول الحضارة صانعة بالقاتلين الغادرين لو كان
هؤلاء الأربعة أو السبعون مبشرين بالدين المسيحي قتلوا
في قبيلة من الهمج الذين يأكلون الأدميين ومن حقهم أن
يعذروا كما تعذر الوحوش . . ان بقى من أبناء القبيلة من
يروى أبناء القبيلة ، فقد يقال أن القوم لرحماء في العقاب !!
ولم يكن حادث بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث
الغدر بالرسل الأبرياء . فلعلنا نختم هذا الفصل عن الصداقة
بخير ما يختم به حين نشير الى غدر قبيلة هذيل بالرسل
الستة الذين ذهبوا اليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام
الدين وهو آمن في داره ، لا اكراه له ولا بغى عليه . فقتلوا
جميعا وجرى بأحدهم زيد بن الدثنة أسيرا لبيع . . .
فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه ، ونصب للقتل فسأله
أبو سفيان مستهزئا : « أنشد الله يا زيد . أتحب أن محمدا
الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ » فأجابه
زيد : « والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه
تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلى . . . »

فصاح أبو سفيان دهشا : « ما رأيت من الناس أحدا
يحب أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمدا . . . »

من فصلة كهذه نعلم مدى ما استحقه محمد من حب
الأصدقاء ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء ، فقد أحب
أصدقاءه وأحبوه لأنه طبع على الصداقة . أما أعداؤه فقد
لقوا جزاءهم لأنهم هم طبعوا على العدا والاعتداء

محمد الرئيس

الرئيس الصديق

من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا عن محمد الصديق . لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة المختارة : فمحمد الرئيس هو الصديق الأكبر لرؤوسيه ، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة من ذرائع السلطان فهناك الحكم بسلطان الدنيا وهناك الحكم بسلطان الآخرة وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة وكل أولئك كان لمحمد الحق الأول فيه : كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمر المطلق اليدين في رعاياه ، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبي الذي يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفا كفو وأوفر مهيب ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر بسلطان الصديق الأكبر : بسلطان الحب والرضا والاختيار فكان أكثر رجل مشاورة للرجال ، وكان حب التابعين شرطاً عنده من شروط الإمامة في الحكم بل في العبادة ، فالإمام المكروه لا ترضى له صلاة وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه . فروى أنه كان في سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة . فقال رجل : يا رسول الله ! على ذبحها . وقال آخر : على سلخها . وقال آخر : على طبخها . . . فقال عليه السلام : وعلى جمع الخطب . فقالوا : يا رسول الله تكفيك العمل . قال : علمت أنكم

تكفوننى ، ولكن أكره أن أتميز عليكم ، أن الله سبحانه وتعالى
يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه «
وأبى ، والمسلمون يعملون فى حفر الخندق حول المدينة ،
إلا أن يعمل معهم بيديه . ولولا أنها سنة حميدة يستنها
للرؤساء فى حمل التكاليف لأغفى نفسه من ذلك العمل وأعفاه
المسلمون منه شاكرين

وجعل قضاء حوائج الناس أمانا من عذاب الله أو كما قال :
« إن لله تعالى عبادا اختصهم بحوائج الناس يفرع اليهم الناس
فى حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله » .
وقد كان أعلم الناس أن الأعمال بالنيات . ولكنه علم
كذلك « أن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم » فوكل
الضمائر الى أصحابها والى الله ، وحاسب الناس بما يجدى
فيه الحساب

سمع خصومة بباب حجرته فخرج اليهم فقال : إنما أنا
بشر . وأنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض
فأحسب أنه صدق ، فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحق
مسلم فأنما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها «
واليوم يكثرون اللاغطون بحرية الفكر ويحسبونها كشفا من
كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها ، ويحرمون على الحاكم
أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا ويكن فى
كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة

فهذا الذى يحسبونه كشفا من كشوف العصر الأخير قد
جرى عليه حكم النبى قبل أربعة عشر قرنا ، وشرعه لأمته
فى أحاديثه حيث قال عليه السلام : « أن الله تجاوز لأمته
عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به »

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل في تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا إليها ، وهي هي دعوة النبي العربي التي كررها ولم يدع قط إلى غيرها فقال : « أن الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتي تغلب غضبي » وقال : « أن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه مالا يعطي على العنف » وقال : « أن الله تعالى لم يبعثنى معننا ولا متعننا ، ولكن بعثنى معلما ميسرا » وروى عنه غير صاحب من أصحابه أنه ما خير بين حكيمين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن فيه خرق للدين



وكان يوصي بالضعفاء ويقول لصاحبه : « ابغوني الضعفاء فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » ويذم الترفع على الخدم والفقراء « فما استكبر من أكل مع خادمه وركب الحمار بالأسواق واعتقل الشاة فحلبها »

لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير : « من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا »
أذ ليس الانصاف حراما على الكبراء حلالا لمن صغر دون من كبر ، فلكل حق ولكل انصاف . وانزال الناس منازلهم كما أمر قومه هو خير شعار تستقيم عليه الحكومة ، وتنعكس أمور الأمم بانعكاسه



وكان النبي الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع المرءوسين

وليست للموافقين منهم دون المخالفين ، فيأمر قومه أن
« اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا فانهما ليس دونها
حجاب »

وإذا قال هذا رئيس ونبي فانها لأولى السنن أن يتبعها
الرؤساء كافة ، لأنهم لم يبعثوا لنشر الدين ومحو الكفر كما
بعث الانبياء



لقد كانت سنة الرئاسة عند محمد هي سنة الصداقة .
فلو استغنى حكم عن الشريعة لاستغنى عنها حكم هذا
الرئيس الذى جاء بالشريعة لجميع متبعيه

الزّوج

حق المرأة

الكلام عن زوج يستدعى الكلام عن مكانة امرأة عند رجل ،
وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة
وانما تعرف مكانة المرأة التي وصلت اليها بفضل محمد
ودينيه ، متى عرفت مكانة المرأة التي استقرت عليها
في الجاهلية ، ومكانة المرأة التي استقرت عليها في عصره -
وبعد عصره - وبين أمم أخرى غير الأمة العربية

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت
عليه المرأة في الجاهلية وما صارت اليه بعد رسالة محمد :
كانت متاعا يورث ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين ،
فأصبحت بفضل الاسلام ونبيه صاحبة حق مشروع ،
ترث وتورث ولا يمنعها الزواج أن تتصرف بمالهها وهي في
عصمته كما تشاء

وكانت وصمة تدفن في مهدها فرارا من عار وجودها ، أو
عبثا تدفن في مهدها فرارا من نفقة طعامها . فأصبحت
انسانا مرعى الحياة ينال العقاب من ينالها بمكروه
ولم تكن في البلاد الاخرى بأسعد حظا منها في البلاد
العربية

فلا نذكر شرائع الرومان واستعبادها النساء . ولا نذكر
المتنطسين في صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة
وتجريدهم اياها من الروح

وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذي قيل فيه انه عصر

المرأة الذهبى بين الأمم الأوروبية ، وأن الفرسان كانوا يفدون
النساء بالدم والمال

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له : عصر الحصان قبل
أن يكون عصر المرأة أو عصر « السيدة المفداة »

وقد أجمله جون لانجدون دافيز صاحب « التاريخ الموجز
للنساء » (١) فقال : « ان عصر الفروسية كان معروفا بما
لحظ فيه من فقدان الشبان على الجملة الاهتمام بالجنس
الآخر . ولعلنا نقل من الدهشة لذلك لو أننا وعينا كلمة
الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت
ذات شأن بالخيال على خلاف ما يروق الكثيرين أن يذكروه .
فقلما بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان فى عصر
الفروسية الا على اعتبار أنها عنوان ضيقة »

الى القارىء محادثة من كتاب أغاني الآداب والتحيات
Chanson de Geste يروى فيها أن ابنة أوسيس Ausels
جلست فى نافذتها ذات يوم فعبر بها فتیان - هما جاران
وجربرت - وقال أحدهما : « أنظر . أنظر يا جربرت : وحق
العذراء ما أجملها . من فتاة ! فلم يزد صاحبه على أن قال :
يا لهذا الجواد من مخلوق جميل ! . . . دون أن يلتفت بوجهه . .
وعاد صاحبه يقول مرة أخرى : « ما أحسبني رأيت قط
فتاة بهذه الملاحه . ما أجمل هاتين العينين السوداوين ! »
وانطلقا وجربرت يقول : ما أحسب أن جوادا قط يماثل هذا
الجواد » وهى حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة . إذ قلة
الاهتمام تورث الازدراء « . . . والحق أن عصر الفروسية

(١) Short History of Women by John Langdon Davies

يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الازدراء . واليك
مثلا حادثة في الكتاب المتقدم يروى فيها أن الملكة بلانشفلور
ذهبت الى قرينها الملك بيپن Pepin تسأله معونة أهل
الورين . فأصغى اليها الملك ثم استشاط غضبا ولطمها على
انفها بجمع يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت
تقول : « شكرا لك . ان أرضاك هذا فأعطني من يدك لكمة
أخرى حين تشاء »

ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو
كثيرا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة . وكأنما كانت اللكمة
بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت في عهد الفروسية على
أن تواجه زوجها بمشورة

« ومتى كانت المرأة تزف الى زوجها عفو
الساعة وكثيرا ما تزف الى رجل لم تره قبل ذاك ، اما
لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكرى ، أو لتسهيل
صفقة من صفقات الضياع . ومتى كانت بعد زفافها الى
فارس مجنون بالحرب معطل الذكاء قد يكون في معظم الاحوال
من الأميين - عرضة للضرب كلما واجهته بمخالفة - أترى
سيدة القصر اذن واجدة لها رحمة أو ملاذا من حياة الشقاء
أو من صحبة قرين ليس لها بأهل ؟ »



ولقد تقدم الزمن في الغرب من العصور المظلمة الى عصور
الفروسية الى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ولما تبرج
المرأة في منزلة مسفة لا تفضل ما كانت عليه في الجاهلية

العربية ، وقد تفضلها منزلة المرأة في تلك الجاهلية
ففى سنة ١٧٩٠ بيعت امرأة فى أسواق انجلترا بشلنين
لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التى كانت تأويها
وبقيت المرأة الى سنة ١٨٨٢ محرومة حقها الكامل فى ملك
العقار وحرية المقاضاة

وكان تعلم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال ،
فلما كانت اليصابات بلاكويل تتعلم فى جامعة جنيف سنة
١٨٤٩ - وهى اول طبيبة فى العالم - كان النسوة المقيمات
معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها ، ويزوين ذيولهن من طريقها
احتقارا لها كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها
ولما اجتهد بعضهم فى اقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة
فلادلفيا الامريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصدر
كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشير
أولئك الأطباء

وهكذا تقدم الغرب الى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم
المرأة فيه تقدما يرفعها من مراغة الاستعباد التى استقرت
فيها من قبل الجاهلية العربية

فماذا صنع محمد ؟ وماذا صنعت رسالة محمد ؟
حكم وأخذ من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من
الحقوق كفاء ما فرض عليها : « ولهن مثل الذى عليهن
بالمعروف »

وحكم آخر من أحكامه العالية أمر المسلم باحسان معاشرتها
ولو مكروهة غير ذات حظوة عند زوجها : « وعاشروهن
بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل
الله فيه خيرا كثيرا »

وأباح لها الدين في الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال :
« للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »
ولم يفضل الرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها
واقامة أودها والسهر عليها

أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم
« اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم
لنسائهم »

وأمر بمداواة ضعفها ونقصها لأن « المرأة خلقت من ضلع
لن تستقيم لك على طريقة ، فان استمتعت بها استمتعت
بها وبها عوج ، وان ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها »
وأوجب على الرجل أن يتجمل لامراته ويبدو لها في المنظر
الذي يروقها ، فقال عليه السلام مما قال في هذا المعنى وهو
كثير « اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا
وتنظفوا ، فان بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت
نساؤهم »

وأوجب على الرجل اذا خطب امرأة أن يظهرها على عيبه
ان كان به عيب مستور : « اذا خطب أحدكم المرأة وهو
يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب »

وبلغ من رعاية شعورها ومداواة خجلها الذي فطرت عليه
انه أوجب على الرجل أن يمتعها كما تمتعه لأنها لا تطلب لنفسها
ما يطلبه الرجل منها : « فاذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ،
ثم اذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى
تقضى حاجتها »

وكان تأديبه المسلمين في هذه الصلة غاية في السكياسة
والترفق ، فقال مما قال في هذا المعنى : « اذا دخلت ليلاً فلا

تدخل على أهلك حتى تستجد المغيبة وتمشط الشعثة . . .
الكيس ، الكيس ! »

معاملته لزوجاته

وانما نلخص ما أوجبه النبي على المسلمين عامة في معاملاتهم
لزوجاتهم ، وهو دون ما أوجبه على نفسه في معاملة
زوجاته بكثير

فكان يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويؤورهن
جميعا في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس
ضحاكا بساما » كما قالت عائشة رضي الله عنها . . .
ولم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه ،
بل أنساهن برفقه وأيناسه أنهن يخاطبن رسول الله في بعض
الأحايين . فكأنت منهن من تقول له أمام أبيها : « تكلم ولا
تقل إلا حقا . . . » ومن تراجع أو تغاضبه سحابة نهارها ،
ومن تبلغ في الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب
في شدته ، فيعجب له ويهم بأن يبطش بابنته حفصة لأنها
تجترى كما يجترى الزوجات الأخريات . وإذا رأى النبي
غضبا كهذا من جرأة كتلك كف من غضب الأب وقال له :
« ما لهذا دعوناك ! »

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن ، أو كما قال : « خدمتك
زوجتك صدقة »

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين أحداهن
وسائرهن وهو ميل قلبه : « اللهم هذا قسمي فيما أملك
فلا تلمني فيما لا أملك »

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن
بعث اليهن فتلطف في سؤالهن : « أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ »
... ليقلن عند عائشة ويأذن له في الإقامة ببيتها . ولو أنه
أحل لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض لما كان في ذلك
من حرج

والمعاملة الطيبة في الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ،
ولكنه في حالة الرضى خلق لا يشق فهمه على كثيرين .
الا أن الخلق الذى يشق فهمه على الأكثرين هو طيب
المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من
خطر وهو المساس بالوفاء

في هذه الحصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا
نخالها تحلم بمعاملة طيب ولا أكرم من المعاملة التى أثرت عن
النبي في قصة عائشة بنت الصديق وهى أخفى نسائه لديه ،
ونلخصها مما روته بلسانها اذ تقول رضى الله عنها :

« ... كان رسول الله إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع
بين نسائه ، فأيهما خرج سهمها خرج بها رسول الله معه .
وأقرع بيثنا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمى ، ثم قفلنا من
الغزوة الى ان دنونا من المدينة ، فقامت حين آذنوا بالرحيل
فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأنى ، وأقبلت
الى الرجل فلمست صدرى فاذا عقدى قد انقطع ، فرجعت
التمسه فحبسنى ابتغاؤه . وأقبل الى الرهط الذين كانوا
يزحلون لى (١) فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه .
وكانت النساء اذ ذلك خفافا لم يهبلن (٢) ولم يغشهن اللحم .

(١) أى يحملون الرجل على البعير (٢) يشغلن اللحم والشحم

انما يأكلن العلقمة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رخلوه ورفعوه اذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن « ووجدت عقدي فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون الى

« فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرس من وراء الجيش فادلج (١) فأصبح عند منزلي فرأى سواد أنسان نائم . فعرفني حين رأي واسترجع . فاستيقظت وخمرت وجهي بجلبابي ، ووالله ما يكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا في نحر الظهيرة (٢)

« فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله ابن أبي بن سلول

« واشتكت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون في قول أهل الافك ولا أشعر بشيء من ذلك « . . . ويريني في وجهي اني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت ارى منه حين أشتكى . انما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذاك يريني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع (٣)

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! »

(١) سار آخر الليل (٢) أي في شدة الحر

(٣) أماكن في خلاء المدينة تقصد لحاجة

قلت : بشس ما قلت ! أتسبين رجلاً قد شهد بدرا ؟
« قالت : أى هنتاه (١) ! أو لم تسمعى ما قال ؟

« قلت : وماذا قال ؟

« فأخبرتني بقول أهل الافك . فازددت مرضاً الى مرضى
فلما رجعت الى بيتى فدخل على رسول الله فسلم ثم قال :
كيف تيكم ؟ استأذنت أن آتى أبوى : أريد أن أتيقن الخبر من
قبلهما ، فأذن لى

« قالت أمى : يا بنية هونى عليك . فوالله لقلما كانت
امراة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الاكثرن عليها
« قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت

تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم
« ودعا رسول الله على بن أبى طالب وأسامة بن زيد
يستشيرهما فى فراق أهله . فأما أسامة بن زيد فأشار على
رسول الله بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه
لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم أهلك ولا نعلم الا خيراً
« وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك ،
والنساء سواها كثير . وان تيسأل الجارية تصدقك

« فدعا رسول الله بريرة يسألها : هل رأيت من شئ عيريك
من عائشة ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ان رأيت عليها امراً
قد أغمضه (٢) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام
عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن (٣) فتأكله

« . . . وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم

(١) كأنها تنعى عليها طبيعتها وقلة معرفتها بمكائد الناس
(٢) أعيبه
(٣) الداجن : الحيوان الذى يألف البيت

ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبوأي
يظنان أن البكاء فائق كبدي

« فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس
وتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة فاني قد بلغني عنك كذا
وكذا . فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألممت
بذنوب فاستغفري الله وتوبى اليه . فان العبد اذا اعترف
بذنوب ثم تاب تاب الله عليه

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس
منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ! فقال : والله
ما أدري ماذا أقول لرسول الله

« فقلت لأمى : أجيبى عنى . فقالت كذلك ، والله ما أدري
ماذا أقول لرسول الله

« قلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن
- انى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر في
نفوسكم وصدقتم به : فان قلت لكم أنى بريئة ، والله يعلم
أنى بريئة ، لا تصدقونى . ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله
يعلم أنى بريئة ، لتصدقوننى ، وانى والله ما أجد لى ولكم
مثلا الا كما قال ابو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على
ما تصفون

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشى

« فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من
أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما
كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى انه ليتحدر منه
مثل الجمان (١) في اليوم الشاتئ

(١) الدر

« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة
تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ! أما الله فقد برك
« قالت لى أمى : قومى إليه

« قلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله . هو الذى
أنزل براءتى

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرايته منه وفقره ،
فأقسم لا ينفق عليه شيئا أبدا . فأنزل الله عز وجل : « ولا
يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤثوا أولى القربى . . . الى
قوله : ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ »

« فقال أبو بكر : والله انى لأحب أن يغفر الله لى ، ورجع
الى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه »

تلك هى القصة التى عرفت بقصة الافك كما روتها لنا
السيدة عائشة رضى الله عنها . وهى مسبار صادق يسير
لنا أغوار المروءة والرفق فى معاملة النبى لزوجاته حيث لا
رفق ولا مروءة عند الأكثرين . فليس النبى هنا فى حالة
من حالات الرضى التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها
المودة وطول الأناة ، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير
الحمية وتثير الحب وتثير النعمة وتثير فى النفس البشرية كل
ساكنة تدعو الى طيب المعاملة ، فلم يكن فى هذه الحالة الا
كرما خالصا بما سلك فى أمر نفسه وفى أمر أهله وفى أمر
دينه ، ولم يدع لحالم من حالمى الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع
اليه فى جميع هذه الغايات

سمع النبى حديثا يلاك بين المنافقين ويسرى الى المسلمين
بل الى خاصة ذويهم الأقربين : حديثا يسمعه رجل كعلى بن

أبى طالب فى بره وكرم نحيزته فلا يرى بعده حرجا من
الطلاق والنساء كثيرات

سمع النبى ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينة ولم
يرفضه بغير بينة ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو
يجفوها الى حين . فعادها وبه من الرفق والانصاف ما أبى
عليه أن يفتحها فى مرضها بما يخامر نفسه الكريمة . وبه من
الموجدة والترقب ما أبى عليه أن يقابلها بما كان يقابلها به
والنفس صافية كل الصفاء . وظل يسأل عنها سؤال متعجب
ينتظر أن تشفى وأن تأتية البينة فيشتد كل الشدة أو يرحم
كل الرحمة ، ولا يعجله لفظ الناس أن يأخذ فى هذا الموقف
الأليم بما توجبه الحمية وما توجبه المروءة فى آن

.. وسأل من ينبغى أن يسأل : عليا وأسامة وهما بمقام ولديه،
وبريرة الجارية التى تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما
تخلص لسيدتها ، وضرة لعائشة تنافسها وتكاد أن تضارعها
فى حظوتها لديه : زينب بنت جحش التى كانت أسرع من
يقول لو علمت شيئا يقال . فاستعازت بالله وقالت : « أحمى
سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيرا »

واتصل الحديث بعائشة فاستأذنته فى زيارة أهلها ، وأن
له أن يفتحها وقد وصل النبأ الى سمعها . ولم يثن له قبل
ذلك وهو كاظم ما فى فؤاده قادر على كتمانها مخافة أن يؤذيها
بغير حق وهى تشكو سقامها .

فاتحها لتبرئ نفسها أو تستغفر الله

وغضبت غضب البرىء المشكوك فيه ، وانها لبريئة فى نظر
كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه
الريبة أمام جيش ، وفى وضوح النهار ، ولغير ضرورة ، ولمنع

رجل من المسلمين يتقى ما يتقيه المسلم في هذا المقام من غضب النبي وغضب المسلمين وغضب الله . فتلك خلة ترفع عنها من هي أقل من عائشة منبتا ومنزلة وخلقا وائفة ، فكيف بها في مكانها المعلوم

الا أن النبي أراد لها البراءة أمام الخلق عامة وأمام نفسه المحبة ، حذرا أن تكون تبرئته إياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق ، فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق الى الثقة كان قد وفي الكرم والحمية والانصاف والرحمة أجمعين نعم وفي الرحمة حتى باللاغطين المتعجلين الذين أبدؤا وأعادوا في ذلك الحديث المريب . وما أحد أرحم ممن يرحم المفترين على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه ، ولا يعذر الناس أحدا كما يعذرون نبيا مطاعا ينال في عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه

سماحة الكريم

ولقد علمنا من رواية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن عيد الله بن أبي بن سلول كان أكبر اللاغطين بحديث الإفك عن سوء نية وكيد مبيت للنبي ودينه ، وكان هذا الرجل كما تقدم في بعض فصول هذا الكتاب بفيضنا الى المسلمين متهمًا عندهم يتوجسون منه ويسمونونه وأس المنافقين ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبي في قتله . فما ضر النبي لو خلى بين المسلمين وبينه يحاسبونه على قريته ويحاسبونه على كيدته وينقمون لعرض النبي منه ليأمنوا شره ويجعلوه عبرة لغيره ؟

واذا قيل ان عبد الله بن أبى كان من أصحاب العصبية
التي يحسب حسابها وتتقى بوادرها فلماذا يقال فى مسطح
وهو مكفول أبى بكر وصنيعته الذى يأكل من ماله ؟ ما الذى
أنجاه من السخط والعقاب وكفل له دوام البر والمعونة لولا
سماحة النبى وسماحة أبى بكر وسماحة القرآن

على أن العصبية التى كان عبد الله بن أبى يلوذ بها لم تكن
لتحميه عقاب النبى لو أراد به عقاب ولو كان أصرم عقاب .
فما من عصبية هى أقرب الى رحم الرجل وأولى بالذود عنه
من ولده المشهور ببره . وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد
تطوع لقتله يوم قيل له ان النبى يهدر دمه ويقضى بموته

انما هى سماحة الكريم

انما هى السماحة التى شملت مسطحا كما شملت كبير
المنافقين ، وخرجت من حديث الافك كله بالعفو عن جميع
المسيئين مخلصين فى رأى وغير مخلصين ، وهى التى سبرت
غورا فى قصة هذا الحديث فتكشفت عن أطيب معاملة
للزوجات فى أخرج الحالات ، وتلك هى المعاملة الطيبة فى مثلها
الأعلى ، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور بل تطول مدى
السنين ، وتطول مدى السنين مع نساء مختلفات لا مع امرأة
واحدة ، وتطول فى جميع الحالات ومنها حالة الألم البالغ ولا
تنحصر فى حالة الرضى والطمأنينة . وأقل من ذلك أمنية
يتمناها الحالمون بالوئام بين الأزواج فى العصر الذى وصفوه
بعصر المرأة ، لفرط ما أظن فيه المطنبون من اكبار شأنها
والدعوة الى انصافها

تعدد الزوجات

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبي وهو الهدف الثاني الذي يرميه المشهرون بالاسلام فيكثرون من رمية كلما تكلموا عن أخلاق محمد عليه السلام وذكروا منها ما يزعمونه منافيا لشاغل النبوة ، مخالفًا لما ينبغى أن يتصف به هداة الأرواح

السيف والمرأة !

كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبي بين الاستسلام للغضب والاستسلام للهوى ، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء

أما السيف ، فقد أسلفنا الكلام فيه
أما المرأة فالظنة فيها أضعف من الظنة في السيف على ما نراه ، لان الاستسلام للشهوة آخر شيء يخطر على بال الرجل المحقق — مسلما كان أو غير مسلم — حين يبحث في تعدد زوجات النبي ، وفيما يدل عليه ذلك التعدد ، وفيما اقتضاه

قال لنا بعض المستشرقين ان تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية

قلنا انك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية (Undersexed) لأنه لم يتزوج قط . فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية (Oversexed) لأنه جمع بين تسع نساء

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها ، هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ،

وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة
الجنسين والتقاء الذكر والأنثى ، فهي الغريزة التي تلهم الحي
في كل طبقة من طبقات الحياة مالا تلهمه غريزة أخرى .
أرأيت الى السمك وهو يعبر الماء المالح في موسمه المعلوم
فيطوى الوفا من الفراسخ ليصل الى فرجة نهر عذب يجدد
فيها نسله ثم يعود أدراجه ؟ أرأيت الى العصفور وهو يبنى
عشه ويعود من هجرته الى وطنه ؟ أرأيت الى الزهر وهو
يتفتح ليغري الطير والنحل بنقل لقاحه ؟ أرأيت الى سنة
الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هي سنتها ان لم
تكن هي سنة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة
ان لم يكن على هذا السواء ؟

فحب المرأة لا معابة فيه

هذا هو سواء الفطرة لا مرأء

وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سواءه ،
وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططا في طلابه .
فهو عند ذلك مسح للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور
في جميع الطبائع

فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ثم يقع في روعه
ان المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير ؟

من من بناء التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخا
أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الإسلامية ؟

ومن ذا الذي يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟
عم شغلته المرأة ؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ
فيه شأو محمد في مسعاه ؟

فان كانت عظمة الرجل قد اتاحت له أن يعطى الدعوة

حقها ويعطى المرأة حقها فالعظيمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب . ورسالة محمد اذن هى الرسالة التى يتلقاها اناس خلقوا للحياة ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها ، فليست شريعة هؤلاء بالشرعية المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور

وأعجب شئ أن يقال عن النبى انه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخبرهن فى الطلاق لأنهن طلبن اليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها

فقد شكون - على فخرهن بالانتماء اليه - أنهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة ، واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتددن فيها حتى وجم النبى وهم بتسريحهن ، أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهم والتسريح

وذهب اليه ابو بكر يوما « يستأذن عليه فوجد الناس جلوسا لا يؤذن لأحد منهم . ثم دخل ابو بكر وعمر من بعده فوجدا النبى جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا . فأراد ابو بكر أن يقول شيئا يسرى عنه ، فقال : « يا رسول الله لو رايت بنت خارجة ! سألتنى النفقة فقامت اليها فوجأت عنقها . فضحك رسول الله وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة !! فقام ابو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ويقولان : « تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ » فقلن : « والله لانسأل رسول الله شيئا ابدا ليس عنده » . ثم اعتزلهن الرسول شهرا أو تسعة وعشرين يوما فنزلت بعدها الآية التى فيها التخيير وهى : « يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله

ورسوله والدار الآخرة ، فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما »

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها : « يا عائشة ! انى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلنى فيه حتى تستشيرى أبويك . . » قالت : « وما هو يا رسول الله ؟ » فتلا عليها الآية . قالت : « أفيك يا رسول الله أستشير أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة . . » ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة ، وقنعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها .
علام يدل هذا ؟

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ؟

أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يفضب المسلمين ، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله ؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال انه كان يفرط فى ميله الى النساء ؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟

لم يكلفه شيئا من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها ، ولم نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون ، بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات فى طعامه ومعيشته وفى ميله الى نسائه . فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه

الضريبة بسيطة في العيش قد ينالها اصغر المسلمين ، ولا شك
في قدرة النبي عليها لو أراد

رجل الجد والرصانة

وهكذا نبحث عن الرجل الذي توهمه المشهرون من
مؤرخي أوربا فلا نرى الا صورة من أعجب الصور التي تقع
في وهم وآهم

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع
مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه !
ونرى رجلا تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطينهن الزينة التي
يتحلين بها لعينيه ثم يقال انه رجل غلبته لذات حسه !
ونرى رجلا أثر معيشة الكفاف والقناعة على ارضاء
نساؤه بالتوسعة التي كانت في وسعه ثم يقال انه رجل غلبته
لذات حسه !

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاما مضحكا
مستغربا لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح . أو لعله اقبح
فلاح !

ويزيد في غرأبته أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهم لم
يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخط فيه الظنون
ذلك الخطب الذريع

فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية
كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة
كان معروفا من صباه الى كهولته فلم يعرف عنه أنه

استسلم للذات الحس في ريعان صباه ، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح . . . بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة . وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شائثيه والناعمين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم الى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات . . . كلا . لم يقل أحد هذا قط من شائثيه وهم عديد لا يحصى . ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل

ولما بنى بأولى زوجاته - خديجة - لم تكن لذات الحس هى التى سيطرت على هذا الزواج . لأنه بنى بها وهى فى نحو الأربعين وهو فى نحو الخامسة والعشرين ، ونيف على الخمسين وأوتى الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة فى الزواج بأخرى

ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء المرء للذات حس أو ذكرى متاع جميل . لأنه فضلها على عائشة فى صباها وهى أحب نسائه اليه ، وكانت عائشة تغار منها فى قبرها فلم يكتبها قط أنه يفضلها عليها

قالت له مرة : هل كانت الا عجوزا بذلك الله خيرا منها ، فقال لها مفضبا : « لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها . آمنت بى اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستتنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء »

فهذا أحب خديجة ووفى لها وفضلها ولم يمح ذكراها من

نفسه قط من أعقبتها من الزوجات الفتيات : وفاء قلب
وليست لذات حس ولا ذكرى متاع جميل

أسباب تعدد زوجاته

ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي
بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بارضاء هذه الملذات أن يجمع
النبي اليه تسعا من الفتيات الأبنكار اللاتي اشتهرن بفتنة
الجمال في مكة والمدينة والجزيرة العربية ، فيسرعن اليه
راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه
المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة

لكنه لم يتزوج بكرا قط غير عائشة رضي الله عنها ، ولم
يكن زواجه بها مقصودا في بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة
بنت حكيم التي عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة

قالت عائشة رضي الله عنها : « لما توفيت خديجة قالت
خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون للنبي : « أي رسول
الله ! ألا تزوج ؟ » قال : « من ؟ » قالت : « أن شئت بكرا
وان شئت ثيبا ؟ » قال : « فمن البكر ؟ » قالت : « بنت
أحب الناس اليك عائشة بنت أبي بكر » قال : « فمن
الثيب ؟ » قالت : « سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك »
ثم كانت سودة هي أولى النساء اللاتي بنى بهن بعد وفاة
خديجة . وكان زوجها الأول - ابن عمها - قد توفي بعد
رجوعه من الهجرة الى الحبشة . وكانت هي من أسبق
النساء الى الاسلام فأمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها
الى الحبشة فرارا من أعنات المشركين له ولها . فلما مات لم

يبقى لها إلا أن تعود إلى أهلها فتصبأ وتؤذى ، أو تتزوج بغير
كفو أو بكفو لا يريد لها . فضمها النبي إليه حماية لها وتأييها
لأعدائه من آله . وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظر إلى
لذات حس ومال إلى متاع

وكانت للنبي زوجة أخرى وسمت بالوضاعة والفتاء وهي
زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التي زوجها زيدا
ابن حارثة بأمره وعلى غير رضى منها ، لأنها أنفت - وهي
ما هي في الحسب والقرباة من رسول الله - أن يتزوجها
غلام عتيق

هذه أيضا لم يكن « للذات الحس » المزعومة سلطان في بناء
النبي بها بعد تطليق زيد أياها وتعذر التوفيق بينهما ، ولو
كان للذات الحس سلطان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على
النبي أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهي
تأباه . فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من
حسنها شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيدا وشدد عليها
في قبوله . فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من
اعراضها عنه وترفعها عليه واغلاظها القول له كان زواج
النبي بها « حلا لمشكلة » بيتية بين ربيب في منزلة الابن وابنة
عمة أطاعته في زواج لم يقرن بالتوفيق

أما سائر زوجاته عليه السلام فما من واحدة منهن -
رضي الله عنهن - إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة
العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهدر به المرجفون من
لذات الحس المزعومة

فأم سلمة كانت كهلة مسنة يوم خطبها ، كما قالت له
معتذرة إليه لاعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها ، جبرا

لخاظرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومي من جرح أصابه
في غزوة أحد . ولما برح بها الحزن لوفاته وأسأها رسول
الله قائلا : « سئى الله أن يؤجرك في مصيبتك وأن يخلفك
خيرا » فقالت : « ومن يكون خيرا من أبى سلمة ؟ » فأوجب
على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبى سلمة ، ولأنه
يعلم أن أبى بكر وعمر خطباها فترفقت في الاعتذار ، وهما
اعظم المسلمين قدرا بعد النبى عليه السلام

وجويرة بنت الحارث سيد قومه كانت احدى السبايا في
غزوة بنى المصطلق فتزوجها النبى ليعتقها . ويحض المسلمين
على عتق ابراهيم وسباياهم تفريجا عنهم وتألفا لقلوبهم ،
فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة
اليه والبقاء في حرم رسول الله فاختارت البقاء في حرم
رسول الله

وحفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها
على أبى بكر فسكت وعلى عثمان فسكت . وبث عمر أسفه
للنبى فلم يكن للنبى عليه السلام أن يضمن على وليه وصديقه
بالمصاهرة التى شرف بها أبى بكر من قبله ، وقال : يتزوج
حفصة من هو خير من أبى بكر وعثمان

ورملة بنت أبى سفيان تركت أباهما لتسلم وتركت وطنها
لتهاجر مع زوجها الى الحبشة ، ثم تنصر زوجها وفارقها وهى
غريبة هناك بغير عائل . فأرسل النبى الى النجاشى في طلبها
لينقذها من ضياع الغربة وضياع الأهل وضياع القرين .
فكانت النجدة الانسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له
باعث من المتعة والاستزادة من النساء ، وكان للنبى مقصد
جليل من وراء هذا الزواج الذى لم يفكر فيه حتى الجأته

النجدة الى التفكير فيه ، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان
بأصرة النسب ، عسى أن يهديه ذلك الى الدين ، بما يعطف
من قلبه ويرضى من كبريائه

وكان اعزاز من ذلوا بعد عزة : سنة النبي عليه السلام في
معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن
في الدل بعد فقد الحماية والأقرباء ، ولهذا خير صفيّة
الإسرائيلية سيدة بنى قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن
يعتقها ويتزوج بها . فاختارت الزواج منه عليه السلام .
وآية الآيات في رعاية الشعور الانساني أنه عليه السلام أنب
صفيه بلالا لأنه مربها وبابنة عمها على قتلى اليهود . فقال
له مفضبا : « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على
قتلاهما ؟ » واحتقرتها زينب فلقبتها يوما باليهودية فهجرتها
شهرًا لا يكلمها ليأخذ بناصر هذه الغريبة ويدفع عنها الضيم



يتكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد عليه السلام
عن هذه الأسباب وشبهاتها من دواعي اختياره لنسائه
واستجماعه لهذا العدد من الزوجات في حين واحد
ولا حرج — كما أسلفنا — على رجل قويم الفطرة أن يلتمس
المتعة في زواجه . ولكن الذي حدث فعلا أن المتعة لم تكن
قط مقدمة في الاعتبار عند نظر النبي في اختيار واحدة من
زوجاته قبل الدعوة أو بعدها ، وفي إبان الشباب أو بعد
تجاوز الكهولة

وآخر صورة يتصورها المنصف هنا هي صورة رجل

فرغ للذاته وجلس ينتقى واحدة بعد واحدة من الحسان
على حسب ما يرجوه عندها من متاع . فأنما كان الاختيار
كله على حسب حاجتهن الى الايواء الشريف او على حسب
المصلحة الكبرى التى تقضى باتصال الرحم بينه وبين سادات
العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه ، ولا استثناء
فى هذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته حتى التى
بنى بها فتاة بكرا . موسومة بالجمال ، وهى السيدة عائشة
بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه

الا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه
الحياة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ولم يذكروا
الا شيئا واحدا حرقوه عن معناه ودلالته ، ليفتروا على
النبي ما طاب لهم أن يفتروه ، وذاك أنه جمع فى وقت واحد
بين تسع زوجات

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط
لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو
المطروق لكل طارق ، فى غير مشقة عندهم ولا معابة

ونسوا أنه بقى الى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف فى
طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم
حسيب منظور اليه بين الأسر وبين الفتيات

ونسوا أنه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى
الأربعين اكتفى بها الى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين

ونسوا أنه اختار أحسابا فى حاجة الى التألف أو الرعاية
ولم يختار جمالا مطلوبا للمتاع

ونسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب
لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير ،

ولم يجاوز حياة القناعة قط لارضاء نسائه وارضاء نفسه ،
ولو شاء لما كلفه ارضاء نفسه وارضاءهن غير القليل بالقياس
الى ما في يديه

نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء
اللاتى جمع بينهن عليه السلام . فلماذا نسوه ؟
نسوه لأنهم ارادوا ان يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا
عن الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الاغضاء
عنها ، لو أنهم ارادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها

الوجهة الخلقية

ونستطرد الى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو
الأدبية فلا نطيل فيه ، لأننا نقصر هذا الكتاب على عبقرية
محمد وما له اتصال بجوانب هذه العبقرية في تعدد مناحيها ،
ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة الإسلامية في تفصيلها
ولا مسوغات الأصول الدينية على اختلافها

فأوجز ما نقوله في تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو
الأدبية أن النبی عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها
أو مباحا يختاره من يختاره وله مندوحة عنه . وإنما جعله
ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة في بعض الأحوال
لأنها خير من ضرورات ، ولن ينكر هذا الا متعنت يصدم
الحقائق ويتجاهل المحسوس المائل للعيان

ففى حياة محمد الخاصة لا ينكر أحد أن بناءه بنسائه قد
كان خيرا من الاخلاء بينهن وبين التأيم والمذلة والرجعة الى
الكفر والضلالة ، وكان خيرا من قطع تلك الأصرة التى وصلت

بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل في نفع
الدين والمتدينين به ، وهى ضرورة يلجأ الى الاعتراف بها كل
مستول عن شئون أمة بل أمم تمارس الحياة الدنيا ، وكل
امام عليم بطبائع الناس

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع
المدنية الحديثة جميعاً ثم تحللت منها بإباحة الزنى وعلاج
مشكلة الزواج بحلل خارج عن نطاق الزواج أو خارج عن
نطاق البيت والأسرة . ولو أهتدت هذه الشرائع المدنية الى
حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد الزوجات ، وتنكر أنه
ضرورة أكرم من ضرورات

فلا شك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين
غيرها أكرم لها وللمجتمع من نيذها في معترك هذه الدنيا
الضروس بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم ، ثم هو أكرم
للزوج نفسه وهو كائن حتى يريد أن يصل ما بينه وبين
الحياة بذرية صالحة هى الغرض الأكبر من كل زواج ، ولولاها
لانتقض في المجتمع الانسانى أساس كل زواج
ولا شك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة
أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خلية أو عدة
خليات

ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة في أوقات الحروب
التي ينقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الانسانى وأصلح من
تسهيل العلاقات الأخرى التي لا تنفع النوع ولا تنفع
الأخلاق ، ولا ترفع مكانة المرأة في عصمة رجل أو في متناول
كثير من الرجال
هذا شيء جائز

بل هذا شيء أكثر من جائز . لأنه واقع لا محيد عنه ولا
حيلة فيه . وغير ملوم من يواجهه بحل أكرم من حلول
شتى . بل اللوم عليه أن ينظر في شئون العالم ثم يغمض
عينيه عن حقائقه التي تصدم كل عين



ومن السهل - على من أراد - أن يسوس العالم في خياله
بالفضائل التي تروقه وترضيه ! وليس من السهل عليه أن
يخلق العالم الذي يساس له ويرضى بما ارتضاه . وقد علم
هذا كل رجل واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التي
واجهت محمداً بادئ الرأي على غير مثال سابق يحتديه ،
إلا ما ألهمه الله

ماذا صنع نابليون في عصرنا الحديث ؟

وانما ضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلاباً في الأطوار
والعادات يشبه نشأة الدين في أيام الدعوة المحمدية ونعني
به الثورة الفرنسية ، وحضر انحداراً في الأخلاق والآداب
يشبه الانحدار الذي أصيب به العرب في أواخر عهد
الجاهلية ، وأسس دولة ، ونظر في سن قانون ، وحاول
ضرباً من الإصلاح

نابليون قد طلق امرأته وأكره أئمة المسيحية على قبول
هذا الطلاق ، وقد اشتهرت له علاقات بخيلات متعددة ،
غير الخيلات المجهولات

ونابليون يقول عن المرأة : « لقد صنعت كل ما وسعني أن
أصنع لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى .

الا انك لا تستطيع أن تصنع لهم الشيء الكثير دون مساس
بقواعد الزواج . والا أحجم الناس عن الزواج الا القليل «
» ولقد كان للرجل في العهد القديم سريات الى جانب
الزوجات ، ولم يكن أبناء الزنى محتقرين بين الناس احتقارهم
اليوم . . . انه لمن المضحك أن يحظر على الرجل الزواج
بأكثر من واحدة . فتحمل هذه الزوجة الواحدة ، وكان
الرجل في أثناء حملها أعزب أو عقيم

» واليوم لا سريات للرجال ولكنهم يعاشرون التخليلات
وهن أقدر على التبيد والافساد

» انهم في فرنسا يخولون النساء فوق حقهن من التعظيم .
وانما الواجب الا ينظر اليهن كأنهن مساويات للرجال .
فما هن في الحقيقة الا آلات لخراج الأطفال

» وقد قُردن في ايان الثورة وعقدن الجماعات لأنفسهن
وبدا لهن أن يؤلفن فرقا منهن في الجيش !

» وكان لا بد من صدهن . لان المجتمع الانساني عرضة
للخلل والفوضى اذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال
وهي مكانهن الحق في الحياة . نعم ان المجتمع لو شيك اذن
ان يتمزق بددا بغير انتهاء

» وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة . . .
فاذا نشبت الحرب بينهما ، فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء
أو حرب البيض والسود !

» الا وان الطلاق لأضر بالمرأة دون مرء . فالرجل الذي
يجمع بين زوجات لا يبدو عليه من ذلك أثر كالأثر الذي
يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال . انها تضحل اذن
كل الاضمحلال «

كذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية في العصر الحديث . فكيف اعترف بها « لينين » في الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية ؟

حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج . فلا رابطة بين الزوجين أوثق من رابطة الرفيقتين في الفندق أو الطريق . وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة ملائكة إلا الذي جعله على هذا النحو شريعة عجماءات

عقوبة الزوجات

ولا نختم هذا الفصل عن النبي في حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات في الاسلام وللعقوبة التي اختارها عليه السلام . لأن عقوبة الرجل لامراته في حالة الغضب كمحاستته لها في حالة الرضى - كلاهما ميزان صادق لمكانتها عنده ، ومكانة المرأة عامة في تقديره

والقرآن ينص على العقوبات السائغة في حالة النشوز وهي العظة والهجر في المضاجع والضرب ، والتسريح باحسان : « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن : فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراوا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . . . »

والنبي عليه السلام لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها ولم يضرب قط واحدة منهن ، ولم يرو عنه قط

انه ضرب أو نهر خادما فضلا عن زوجة . بل روى عنه ما ينفي ذلك ممن عاشروه ولازموه

بل كان عليه السلام يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال : « أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره ! »

فما نص القرآن عليه من عقوبة الضرب فانما نص عليه لعلاج النشوز الذي لا يستقيم بغيره ، وقيدته المفسرون بشروط تمنع الايذاء وتحصره في القدر الذي يستقيم عليه الجزاء

فخاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات أن بعض النساء يتأدين به ولا يتأدين بغيره ، وقد يعلم الكثيرون أن هؤلاء النساء لا يكرهنه ولا يسترذلنه ، وليس من الضروري أن يكن من أولئك العصبيات المريضات اللائي يشتهين الضرب كما يشتهى بعض المرضى ألوان العذاب

انما العقوبة التي أثرها النبي عليه السلام هي الهجر الطويل أو القصير ، بعد العظة والعتاب الجميل والهجر - ولا سيما الهجر في المضاجع - عقوبة نفسية بالغة وليست كما يسبق الى بعضهم عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة

فان فوات السرور والمتعة أياما لا يؤلم المرأة هذا الايلام الذي يجعل الهجر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق

قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله في كتابه نداء للجنس اللطيف : « أما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تجب زوجها ويشق عليها هجره أياما ، ولا يتحقق هذا

بهجر المضجع نفسه وهو الفراش ، ولا بهجر الحجرة التى
يكون فيها الاضطجاع ، وانما يتحقق بهجر الفراش نفسه .
وتعمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة فى العقوبة لم يأذن بها
الله تعالى . وربما يكون سببا لزيادة الجفوة . وفى الهجر فى
المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذى
هو فيه ، لأن لاجتماع فى المضجع هو الذى يهيج شعور
الزوجية فتسكن نفس كل من الزوجين الى الآخر ويزول
اضطرابها الذى اثارته الحوادث قبل ذلك . فاذا هجر الرجل
المرأة وأعرض عنها فى هذه الحالة رضى أن يدعوها ذلك
الشغور والسكون النفسى الى سؤاله عن السبب ويهبط بها
من نشز المخالفة الى صف الموافقة ، وكأنى بالقارىء وقد
جزم بأن هذا هو المراد ، وان كان مثلى لم يره لأحد من
الأموات . ولا الأحياء »

والذى نراه أن الأستاذ رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق
من هذه العقوبة النفسية . وأن الحكمة فى ايثارها اعمق
جدا من ظاهر الأمر كما رآه الأستاذ

فأبلغ العقوبات و لا ريب هى العقوبة التى تمس الانسان
فى غروره وتشككه فى صميم كيانه : فى المزية التى يعتز بها
ويحسبها مناط وجوده وتكوينه

والمرأة تعلم انها ضعيفة الى جانب الرجل ، ولكنها لا تأسى
لذلك ما علمت انها فاتنة له . وانها غالبته بفتنتها وقادرة على
تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق اليها ورغبة فيها
فليكن له ما شاء من قوة ، فلها ما تشاء من سحر وفتنة
وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم ، وجسبها

إنها لا « تقاوم » بديلا من القوة والضلعة في الأجساد والعقول :

فاذا قاربت الرجل مضاجعة له وهى فى أشد حالاتها اغراء بالفتنة ثم لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها فما الذى يقع فى قرها وهى تهجس بما تهجس به فى صدرها ؟

أقوات سرور ؟ أحنين الى السؤال والمعاناة ؟ كلا . بل يقع فى قرها أن تشك فى صميم أنوثتها وأن ترى الرجل فى أقدر حالاته جديرا بهيبتها واذعانها ، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة . فهو مالك أمره الى جانبها وهى الى جانبه لا تملك شيئا الا أن تثوب الى التسليم ، وتفر من هوان سحرها فى نظرها قبل فرارها من هوان سحرها فى نظر مضاجعها

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد ، بل هذا هو الصراع الذى تتجرد فيه الأتى من كل سلاح ، لأنها جربت أمضى سلاح فى يديها فارتدت بعده الى الهزيمة التى لا تكابر نفسها فيها . فانما تكابر ضعفها حين تلوذ بفتنتها . فاذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذلك



وهنا حكمة العقوبة البالغة التى لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاناة

انما العقوبة ابطال العصيان ، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل باحساس العاصى غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه . والهجر فى المضاجع هو مثابة الرجوع الى هذا الاحساس

على أن عقاب النبي لزوجاته كان من النادرة بحيث لا يذكر
لولا ما تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة في حياته
الخاصة والعامة على السواء ، وهذا مع طول العشرة وتعدد
الزوجات وكثرة الحوادث الجسام وقلة النسل الذي يصل
المقطوع ويراب المصدوع

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبي لمسلمات منه بعقاب
زوج لزوجات . وهو في حالتي عقابه واحسانه انسان على
أكمل ما يكون الانسان من رحمة وكيس وانصاف

واذا حارت الأدلة في قوام تلك الحياة الزوجية فالدليل
الذي لا يحار أن ينقضى نحو أربعين سنة عليها وهي على
ذلك الصفاء والولاء الذي لم يعرف مثله في علاقات الرجال
والنساء : هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة ، ولن
تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب وراحة
النفوس وحب الخير ومبادلة العطف والتعظيم

الْب

الابوة الروحية والابوة النوعية

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وخارت في تعليلها عقول الأسباطين من أهل العلم والحكمة

وهو ولا ريب يجرى على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء وإن كنا نحن لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ، ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة ، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول إليه

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجرى على سنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته . فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالاتقان في مزية أخرى

فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير في طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالآلاف وألوف الألوف . فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير

والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد . فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه . فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجور ذلك على نسبه وينتقص من قسمته في أبنائه ، كأنما

خدمة النوع ضربية مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور ، فاذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصور الأخرى . أو كأنما هى مواهب وأرزاق لا يستوفىها الفرد الواحد الا بضمن غال يحسب عليه ، ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الانحاء

والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده

فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضربيتهم باصلاح شئون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟ ان قلنا ذلك فاثما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا اليها . ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضى بنا الى الجزم أو الى التغليب

فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام

وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها اناث ، أو رزقوا ذرية من الاناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم يعمرؤا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة

وتواريخ العظماء فى جميع نواحي العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة : يدخل فيهم

القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء
كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ، ويدخل فيهم
القادة العسكريون والسياسيون . ولا يصعب على أحد أن
يدير بصره الى فترة من الزمن في بلد قريب يعرفه حق
المعرفة ليشاهد مصداق ذلك في نفر من عظمائه ومشهوريه ،
وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده
وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى
فهمى ومحمود سامى البارودى وحافظ ابراهيم

فاذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل
مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن اصلاح شئون النوع الانسانى
ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال - فآين
ترانا نجسد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأعلى قيمة ان لم
نجد لها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال بعد الأجيال
وتتناول الملايين فى كل جيل ؟ وأى أبوة انسانية تغنى عن
أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية
الأرواح فى أمتته ، وفى أم لا يلقاها فى زمانه ، وأمنه
لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن
الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرا بالملاحظة
والاعتبار

ألا ما أثقل ثمن الاصلاح !

ألا ما أحق المصلحين بالتمجيد وحسن الجزاء

فمحمد الأئب كان أصلح الآباء ، ثم فجع فى بنيه فجبعة
لا يدارى فيها ألم الانسان الا صبر الأنبياء

ومن الناس من لا يكون صديقا صالحا ولا سيذا صالحا

ولا زوجا صالحا ولكنه أب صالح بر بنيه
لأن الرحيم بين الآباء والأبناء أدنى الأرحام إلى المودة
وأحراها بتحريك الشفقة فيمن لا يشفق على أحد
فكيف تكون الأبوة في نفس صلحت للصدقة وطلحت
للسيادة وطلحت للزوجية لأنها تصلح للعطف الذي يعم
القريب والغريب ، ويشمل القوى والضعيف ؟
ذلك أب نعلم كيف يفرح بأبنائه
ونعلم كيف نحزن حين يفجع في أولئك الأبناء



ومن الراجح أن العطف الأبوي لم يتمثل قط في مولد
أحد من أبناء محمد عليه السلام كما تمثل في مولد ابنه
الذي سماه باسم جده الأكبر أملا في أن يصبح بعده خليفته
الأكبر . ولعل العطف الأبوي قد تمثل في تشييع هذا
الطفل الصغير أشد من تمثله في استقباله يوم ميلاده
كانت أسباب كبيرة توحى إلى قلب محمد العظيم شوقه
الطويل إلى استقبال ذلك الوليد

كان منها أن محمداً عربى يحصر على العقب من بعده
كحصر كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصبية : هم
فخورون بالنسب فخورون بالعقب ، يحفظون سيرة السلف
ويتوقون إلى استبقاء الخلف على نحو لا يعهد الحضريون وإن
كان حب الذرية فطرة مركبة في جميع الطبائع

ومحمد كان يحب التكاثر لنفسه ويحبه لأمتيه ويوصي
المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم

الأهم وفرة وعزة • فاشتياقه الى العقب من الذكور خليفة
عربية تقترون بالخلقة الانسانية والخلقة النبوية ، فتزداد
قوة على قوتها التي ركبت في جميع الطباع

وكان من أسباب هذا الشوق القوي طول العهد بالأبناء
بعد من ولدتهم له السيدة خديجة رضي الله عنها ، وشماتة
أتاس من شأنه سماء بعضهم بالأبتر لانقطاع معظم
نسله : وفي ذلك نزول الآية الكريمة « ان شأنك هو
الأبتر »

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له في خلالها زوجة
من زوجاته • ومات في هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة
رضي الله عنها التي ماتت بعده بقليل : مات القاسم والطاهر
طفلين ، وماتت زينب ورقية وأم كلثوم بعد أن تزوجن ،
ولم يتعوض من فقدهن ما يعزیه بعض العزاء

فجيعة تضاعف الشوق الى الوليد المأمول

وطول انتظار يضاعف الحب له كما يضاعف الشوق اليه
ولسنا ندري لم طالت الفترة التي مضت على أزواج النبي
جميعا بغير عقب • ولكننا لا نستبعد تعليلها باجتماع
المصادفات التي لا يندر أن تجتمع في أمثال هذه الأحوال •
فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكرا غيرها قد مات عنها
عليه السلام وهي دون العشرين ، وهي سن قد تبلغها المرأة
ولا تلد ، وان كانت ولودا فيما بعدها

أما أزواجه الأخريات اللاتي تزوجن قبله فلا نعلم من
أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلفا غير رملة أم
حبيبة وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم

بنتى بها النبى عليه السلام ، وفى عمر لا يستغرب فيه امتناع
الولادة

فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله .
واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجبة المعضلة التى يصعب
تعليلها اذا تذكرنا أن النبى قد توخى فى اختيارهن تلك
الأغراض العامة التى أجملناها فى الفصل السابق ولم
يتحر منها النسل خاصة : وهى الايواء الشريف والمصاهرة .
وبعضهن - بل معظمهن - قد لقين من الشدائد والمخاوف
وعناء الهجرة البعيدة ، ما يعقم الولود

فاذا أضفنا الى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة
النبوية التى أشرنا اليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال
النبي فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن
وداء الأخطار - لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر
العصى على التعليل

حزن الأبوة

طال اشتياق النبى الى الوليد المأمول ، وتجدد اشتياقه
فى أثر كل زواج حتى جاءته فارية القبطية من قطر بعيد ،
ومن معدن غير المعدن الذى يختار لايواء المحزونات وتقريب
الأسر والعصبيات ، فبشرت النبى بعقب لعله غلام ،
واجتمع فى هذه البشارة اشتياق نيف وعشرين سنة ،
ورجاء لا ينتهى بانتهاء الزمان

وولد ابراهيم !

ولد الطفل الذي نظر أبوه اليه يوم مولده فامتد به الأمل
مئات السنين بل ألوف السنين ، وتخير له الاسم الذي وراءه
أعقاب كأعقاب جده الأعلى ، ليكون أباً ويكون له أحفاد ،
ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد

ثم مات ذلك الطفل الصغير

ومات ذلك الأمل الكبير

مات كلاهما والإب في الستين . . أي صدمة في ختام
العمر ؟ أي أمل في الحياة ؟ الدين قد تم ، وهذه الآصرة قد
انقطعت ، فليس في الحياة ما يستقبل وينتظر : كل ما فيها
للاشاحة والادبار

مات الطفل ولما يدرك السنتين

مصائب صغير ان كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين
ولكن المصائب في الأعزاء انما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم ،
والصغير أحوج الى العطف من الكبير المستقل بشأنه

وانما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا ، وتعويل الصغير على وليه
أكبر من تعويل الكبير

وانما تقاس بمبلغ الأمل فيهم ، والأمل يطول في بداءة
الطريق وقد يقصر في منتصف الطريق

انما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين ، وأي مصاب
أفدح من مصاب الستين وما بعدها في الأمل الوحييد
الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه ؟

ما تخيلت محمداً في موقف أدنى الى القلوب الانسانية من
موقفه على قبر الوليد الصغير ذارف العينين مكظوم الوجه
ضارعا الى الله

نفس قد نفثت الرجاء في نفوس الألوف بعد الألوف ،

وهي في ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز : رجاء
وا أسفاه لا يحييه كل ما ينفته المصلح في الدنيا من رجاء
وكأنى بمحمد كان يومئذ أقرب الى قلوب الخالفين من بعده
مما كان مع الجالسين حوله ، ومع أقرب الناس اليه
كان أقرب الناس اليه زوجاته أمهات المسلمين ، وكن
يحببته غاية ما يحب النساء الأزواج ، ولكن حبهن اياه لم
يكن في هذا الموقف من المقربات العاطفات ، لأنه حب آثار
غيرتهن من أم الوليد المأمول ، فاحتجب من عطفهن بمقدار
تلك الغيرة ومقدار ذلك الحب . ولا لوم عليهن فيما طبع عليه
الانسان وفيما لا يقصدنه ولا يقدرن عليه

وكان أقرب الناس اليه أصبحابه الخاشعون بين يديه ،
وكان اكبارهم لسيد الانبياء ينسبهم أنه أب من الآباء ،
بل أنه أب أرحم من سائر الآباء

ظنوا أن النبي لا يحزن ، كما ظن قوم أن الشجعان
لا يخاف ولا يحب الحياة ، وأن الكريم لا يعرف قيمة المال
لكن القلب الذي لا يعرف قيمة المال لا فضل له في
الكرم ، والقلب الذي لا يخاف لا فضل له في الشجاعة ،
والقلب الذي لا يحزن لا فضل له في الصبر ، إنما الفضل
في الحزن والغلبة عليه ، وفي الخوف والسجود عليه ، وفي
معرفة المال والايثار عليه

وفضل النبي في نبوته وفي أبوته أنه حزن وبكى، وتلك
هي الصلة بينه وبين قلب الانسان ، وبينه وبين الناس ،
وأى نبي تنقطع بينه وبين القلب الانساني صلة كهذه الصلة
التي تجمع أشتات القلوب ؟

روى أسامة بن زيد أن زينب بنت النبي أرسلت اليه :

ان ابنتى قد حضرت فأشهدنا « فأرسل اليها السلام
ويقول : « ان الله ما أخذ وما أعطى ، وكل شئ عنده مسمى .
فلتحتسب ولتصبر » . فأرسلت تقسم عليه ، فقام النبي
صلى الله عليه وسلم وقمنا . فرفع الصبي في حجر النبي
ونفسه تقعقع . ففاضت عينا النبي صلى الله عليه وسلم .
فقال له سعد : « ما هذا يا رسول الله ؟ » قال : « هذه
رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده . ولا يرحم الله
من عباده الا الرحماء »

ما هذا يا رسول الله ؟!

هذا رسول الله في أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل :
في الرحمة وفي الآصرة الانسانية ، وغير هذا لن يكون
ومحمد قد اتقى رؤية طفل يموت لابنته وهو كهل غير
يأس من العقب ، فكيف يكون حزنه على فلذة كبده ابراهيم
وهو بعده ذاهب الرجاء في الأبناء ؟

لقد كان حزنه لموته بمقدار فرحه بمولده ، وكان فرحه
بمولده بمقدار أمله فيه واشتياقه اليه

وان العطف الانساني كله ليتجه الى تلك النفس الزكية
وهي تتوسع فرحا بالوليد المأمول خلق الألب المتهلل
شعر ولیده وتصدق بزنته فضة على المساكين ، وذلك هو
التوسع الذي وسيعه رجل كان أقدر الرجال على وجه
البسيطة غير مستثنى فيها رؤساء ولا ملوك

جاء بأقصى ما عنده من الفرح وأقصى ما عنده من
التوسعة . ولو شاء لقد كان وزن الوليد كله درا وجوهرا
بعض ما يستطيع في ذلك اليوم الأغر الميمون

وبمقدار هذا انفرج الطهور يوم الاستقبال كان الحزن
الوجيع يوم الوداع :

خرج الرجل الذى اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها وهو
لا يضطلع بحمل قدميه : خرج يتوكأ على صديق عطوف الى
حيث يحمل الوليد آخر مرة فى حجره الا بوى قبل أن يودعه
حجر التراب . وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال : يا جبل ا
لو كان بك مثل ما بى لهدك . ولكن انا لله وانا اليه راجعون
أى والله ! انها لاحدى الفواقر التى يحملها اللحم والدم
ولا تحملها صخور الجبال

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله . فنهاه رسول الله
وقال : البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان

حزن كما ينبغى له أن يحزن . أما الحزن الذى لا ينبغى
له فهو الصراخ الذى نهى عنه ، وهو أن تنكسف الشمس
يوم موت ابراهيم فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته ،
ويقول الأب الذى انكسفت الشمس حقا فى عينيه : كلا !
« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت
أحد ولا لحياته ! »

أو تخسفان ولكن فى أكباد المحزونين ، وليس فى كبد
السماء

أكرم الآباء

أو كان من الحتم أن يكون محمد مثال الآباء كما كان مثال
الأنبياء ؟ . . . كذلك شاء القدر القادر ، وكذلك رأينا

بمحمد! مثال الأب يوم ولد له إبراهيم ، ومثال الأب يوم
ذهب عنه إبراهيم

ما يتمنى طفل - لو جاز أن يتمنى الأطفال - أبوة أرحم
ولا أزكى من هذه الأبوة في الحالتين

بل كان محمد مثال الأب حيثما كان له نسل قريب أو
بعيد ، وذكر أو أنثى ، وصغير أو كبير

أرأيت إلى الحسن بن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره
وهو ساجد في صلاته ؟

ان النبي في صلاته لهو النبي في مقامه الأسنى . وان
النبي في مقامه الأسنى ليشفق أن يشغل الصبي عن لعبه
فيطيل السجدة حتى ينزل الصبي عن ظهره غير معجل .
ويسأله بعض أصحابه : لقد أطلت سجدتك ؟ فيقول : ان
ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله !

أرأيت إلى فاطمة تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية
محمد ؟ أرأيت إلى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى
فتاة تشبه أباها في مشيته وسمته !

تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات ، يختصها
النبي بمناجاته في غشية وفاته : انى مفارق الدنيا فتبكى .
انك لاحقة بى فتضحك . . . فى هذا الضحك وفى ذلك
البكاء على برزخ الفراق بين الدنيا والآخرة أخلص الود
والحنان بين الآباء والأبناء

سرّها بنبوته ! وسرّها بأبوته ، فضحكت ساعة الفراق
لأنها ساعة الوعد باللقاء

وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء وأكرم الآباء

ایپ

الخير المطبوع

قدمنا الكلام فى فصول هذا الكتاب عن محمد رئيسا ،
ومحمد صديقا ، ومحمد زوجا ، ومحمد أبا ، بعد الكلام على
عبقريته فى الدعوة ، وعبقريته فى قيادة الجيوش ، وعبقريته
فى السياسة والادارة والبلاغة

وبقى جانب لا تتم بغيره الاحاطة بجوانب النفس الانسانية
فى العلاقات بينهما وبين سائر النفوس ، وهو جانب المعاملة
التي تكون بين الرجل ومن هم دونه ممن يملك امرهم ويقبض
على زمامهم ولا يعتصمون منه بعاصم غير عواصم طبعه
وخلقه . ونريد بهم الخدم والعبيد الأرقاء ، وهى معاملة لها
من الدلالة على الاخلاق ، ما يندر أن تدل عليه معاملة اخرى ،
لأنها تأتى من طبائع النفس وعقائدها ، ولا تأتى بأمر آمر
أو بدعوة داع

فالصداقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين . لا يستطيع
أحدهما أن ينساها زمنا طويلا الا ذكره بها مذكر من صديقه
الحافظ لحقوقه ، القادر على مقابلة الجفاء بمثله ، ولو فى طوية
نفسه

والرئاسة قد تخول الرئيس حق السيطرة ، وتفرض على
المرؤوسين واجب الطاعة ، غير انها قل أن تنطلق بغير وازع
من خشية الغضب أو خشية الانتقاض يحسب له الرئيس
كل الحساب ، أو بعض الحساب

والأب يعطف على بنيه فلا يعجب الناس لعطفه عليهم ، لما
ركب فى طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده، وإن اختلف

الآباء في صفات العطف وفي استحقاقهم لبر الأبناء
وكذلك الزوج يرفق بزوجه وليس له كل الاختيار في
رفقه ، لما يكون بين الزوجين من دالة يعتز بها الضعيف ،
ويستغنى بها أحيانا عن القوة والرئاسة

أما العبد المملوك فلا عاصم له غير ما في نفس سيده من
رحمة وخير ، وأنه لمن الرحمة والخير أن يتبع السيد أمر
الدين مع عبده وخدمه الذين لا ينصرهم عليه ناصر في هذه
الدنيا . بل أنها لرحمة تؤثر ولو وقفت عند حدود الأوامر
الالهية ، فإذا تجاوزتها الى طواعية في الخير لم يفرضها الدين
ولم يفرضها العرف ولم يطلبها العبد نفسه فتلك هي الرحمة
في أصدق معانيها ، وهي أدل الدلالات على لباب الأخلاق

ولقد علم القارئ من فصولنا السابقة أننا لم نكتب هذا
الكتاب لشرح الأصول الإسلامية وتفصيل محاسن الدعوة
المحمدية . فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول وليس لنا
أن نتصدى له بعد من فصلوه وكرروا الكتابة فيه

وأنما نقصد بهذه الفصول الى غرض قدمناه على كل غرض
في موضوعه ، وهو بيان البواعث النفسية التي توحى الى
النبي أعماله ومعاملاته ، ولا شك في مطابقة هذه البواعث لكل
أمر من أوامر الدين وكل نهى من نواهيه . إلا أن الخير
المطبوع شيء والخير المأمور شيء آخر . والخير المطبوع هو
الذي قصدنا الى بيانه بكل ما بيناه

ففي كتابتنا عن معاملة محمد للعبيد والخدم لا ننوي أن
نفصل أحكام الاسلام وأوامر القرآن في هذه المعاملة ، وإنما
ننوي أن نبين مزية محمد على جميع السادة في هذا الباب ،
وهي مزية لا تتوافر لمن يقنعون بالتزام الأوامر والحدود ، ولا

للذين يرتفعون الى ارفع مرتبة تفرضها هذه الاوامر والحدود

الاسلام والرق

على أن هذا لا يمنعنا أن نوجز الإشارة بداءة الى مزية الاسلام بين الأديان الأخرى في مسألة الرق والاستعباد ، لأن أناسا يخلطون بين اعتراف الاسلام بنوع من الرق وبين اعتباره مسؤولا عن وجوده في الزمن القديم ، ويردون شيئا من ذلك الى عمل النبي عليه السلام

فمن الواجب أن نذكر أولا أن دينا من الأديان الأخرى لم يأمر بالغاء الرق في شكل من أشكاله ، سواء رق الحروب أو رق النخاسة والبيع والشراء ، وأن أناسا من أقطاب المسيحية كالقديس أغسطين سوفغوه واعتبروه جزاء عادلا للخطايا التي يقتطفها المسترقون ، وجاء بعض أحبار الكنيسة فحرموا على الأرقاء شرف الخدمة فيها بالوعظ والهداية ، أنفة لها أن يدنسها أوم العنصر الذي وسموا به الرقيق

ويجب أن نذكر بعد هذا أن النظام الاقتصادي القديم في أساسه كان مرتبطا بالاسترقاق أشد الارتباط . فكان الفاؤه طفرة واحدة اقرب شيء الى المستحيالات ، ولم يكن أنفع في علاجه من التدرج خطوة خطوة والابتداء بتصميمه وترغيب الناس عنه ، وهو ما شرعه الاسلام

فالاسلام قد بدأ بتحريم كل رق غير رق الأسرى في الحروب ثم حسن اطلاقهم وسماه منا وعفوا يشكر فاعله عليه : « فاما منا بعد واما فداء »

ثم أجاز للأسير أن يشتري نفسه ، وأوجب حرته في

حالات كثيرة يرجع معظمها الى ارادته هو ، اذا استطاع
والحق الذى لا مرأى فيه أن صنيع الاسلام هذا كان أجمل
صنيع لقيه الأرقاء من دين أو شريعة ، وأنه اذا كان هناك
تمهيد لالغاء الرق بته فذلك هو تمهيد الاسلام دون غيره ،
وهو أقصى ما كان مستطاعا فى نظام العالم القديم : نظام كان
عدد الأرقاء فيه يقارب عدد الأحرار ، كما جاء فى بعض
الاحصاءات المروية عن الحضارتين الرومانية واليونانية
وقد نظر فى مسألة الرق عقل من أكبر العقول التى نبغت
فى أمة اليونان بل فى الأمم كافة - ونعنى به أرسطو - فأقره
وأوجبه لأنه جعله سنة من سنن الفطرة وقيدا لا فكاك منه
لطائفة من الناس ، خلقت عاجزة عن ولاية أمرها فلا غنى
لها عن سيد ولا موئل لها من وال

معاملة محمد لعبيده

ولو وقف النبى عند هذا الحد فى معاملة الأرقاء لأحسن
وأجمل وامتاز بأمر دينه على كل محسن الى الأرقاء فى زمانه ،
الا أننا نقرر الواقع ولا نتعداه قيد شعرة حين نقول ان كثيرا
من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرا من المعاملة التى ظفر بها
خدم محمد وعبيده . ومن من الآباء يحسن الى أبنائه خيرا
من احسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه أسامة ؟

فقد اعتق زيدا وراه أهلا للزواج بعقيلة من أقرب قريباته
اليه وأولاهن بحدبه وتوقيره ، وهى التى رآها بعد ذلك أهلا
لزواجه بها وحظوتها لديه . فلم يعطه الحرية وكفى ، ولم
يعطه المساواة فى العيش وكفى ، بل رفعه الى المنزلة

الاجتماعية التي يرتفع اليها ، السادة ، ولا يثبتها شيء كما
يثبتها شرف المصاهرة

ثم حفظ هذا البر الأبوي لابنه أسامة فولاه جيش الشام
وهو دون العشرين ، وفي الجيش طائفة من أكابر الضحابة .
فلو كان للنبي ولد في سنه لما تكفل به أحسن من هذه الكفالة ،
ولا ميزه أشرف من هذا التمييز

نعم لم نعد الواقع ولا تجوزنا في الوصف حين قلنا ان الابن
لا يتمنى خيرا من معاملة محمد لعبد . فقد عرف زيد فعلا
أن محمدا خير من أب وخير من أسرة كاملة يرجع اليها وترجع
اليه . فبقى معه ولم يذهب مع أبيه ، ولم يبق معه اشارة
لبركة النبوة فان محمدا لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره
زيد وآثره على جميع آله . وإنما بقي معه لأنه الانسان الذي
يعرف حتى العبد الرقيق أن أسرة الانسانية عنده أوثق من
أسرة الأبوة عند آخرين

ان حب الوالد لولده وراثته ألوف الألوف من الأجيال .
بل وراثته الحياة في جميع الأحياء . فاذا بلغ البر بالضعفاء مبلغ
الحب الأبوي من القوة فقد بلغ الذروة العليا التي لا متسنى
فوقها لراق

لقد خیرت شريعة الاسلام المحسنين بين المن واعتناق
الاسرى ، وبين الفداء بالمسال أو المبادلة . فأيهما اختار المالك
فهو احسان

أما محمد فقد اختار المن وزاد عليه . فأعتق كل أسير صار
الى حوزته ، وزاد على العتق تلك الرحمة الأبوية التي شملت
كل منتم اليه ، ولم يستبح في غضبه ما يستبيحه المسلم
والوالد من ضرب وتعزير . وربما كانت كلماته للخادم المخالف

أقرب الى الملاطفة منها الى العقاب . ومن ذلك قصة الوصيصة
التي أرسلها فأبطأت في الطريق ، فما زاد على أن قال لها حين
عادت : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك ! »
ضربت سواك لابن عزيز ليس بالشيء الكثير .
ولكن محمدا يخشى القصاص اذا استباحه في معاملة وضيعة
تهمل أمره ، وهو الذي لا يهمل له أمر عند سادة الشرفاء .
وروى أنس أن النبي أرسله في حاجة فأنحرف الى صبيان
يلعبون في السوق ، « واذا رسول الله صلى الله عليه وسلم
قد قبض ثيابه من ورائي ، فنظرت اليه صلى الله عليه وسلم
وهو يضحك ، فقال : يا أنيس ! اذهب حيث أمرتك ! »
كلمة أمر لا يقولها لخادمه الا وقد ناداه مدلا وقابله ضاحكا
كأنه يعتب على قرين . وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام
وكانت رحمته بعبيد غيره كرحمته بعبيده ، فكان يجاملهم
ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافئ عليها ، ويلبى
دعوتهم اذا دعوه الى طعام ، ويوصي بهم قائلا : « هم اخوانكم
وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده
فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ،
فان كلفتموهم فأعينوهم » و « اتقوا الله في الضعيفين النساء
والرقيق »

البر بالخدمة

وربما كان البر بالخدمة في هذا المقام أكرم وأنهى للهوان من
البر بالخدم . . . فالبر بالخادم عطف عليه . أما البر بالخدمة
فارتفاع بالخادم الى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من

خدمه أنفسهم بأيديهم ، وذلك هو البر بالخدمة كما عنيناه ،
وذلك هو داب النبي الذي جرى عليه في بيته وبين أهله
وخدمه

فقد كان يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف
ناضجه أي البعير الذي يستقى عليه الماء . فإذا رأى الخدم
لهم عملاً في البيت يماثل عمل سيدهم وما لك أمرهم فتلك
هي المساواة التي تمسح ضير الخدمة وتجبر كسرهما ، ولا
تقتصر على العطف والرحمة

ولم يقبل عليه السلام خدمة من خادم يأنف الأحرار أن
يقضوها له شاكرين . فما كان في رجالات المسلمين كابر ابن
كابر إلا كان يتمنى أن يؤدي لنبيه تلك الخدمة التي تطوعت
بها نفوس مواليه واتباعه . وهذا ضرب آخر من ضروب البر
بالخدمة والتسوية فيها بين مقام الخادم ومقام المريد . فكان
عمل الخادم عنده عمل التلميذ الذي يجلس إلى قدمي أستاذه ،
حبا لا خنوعا وتوقيرا لا مذلة وأدبا يفرضه على نفسه وليس
بضريبة مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب

وعلى هذا كان النبي عليه السلام يكره أن تقبل يداه مخافة
أن تجرى العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل
الدلة والخضوع . قال أبو هريرة رضي الله عنه « دخلت
السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم فاشتري سراويل ،
وقال للوازن : زن وأرجع . . . فوثب الوزان إلى يد رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده وقال : هذا
تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم . ثم
أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال : صاحب الشيء أحق
بشيئه أن يحمله »

ولقد يصح أن يقال أن حصة النبي من خدمة نفسه كانت أعظم من حصة خدمه . وأن تعويلهم عليه كان أكبر من تعويله عليهم وأنه جعل الخدمة على سنته ضرباً من توزيع الأعمال، أو ضرباً من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تدبيره وقضاء شئونه

« إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد »

هذه كلمة السيد بامامته، السيد بنسبه ، السيد بسلطانه، السيد بالتفاف القلوب حوله ، السيد بسيادته على سره وعلاتيته ورايه وهواه . ولو عمت هذه السيادة لبطل الاستعباد وأصبح تفاوت الدرجات كتفاوت الأعمار شيئاً لا غضاضة فيه على صغير ولا خنزوانة فيه لكبير : إنما هو تقسيم أعمال ، وتعاون بين إخوان ، وإن لم يكن تعاوناً بين أمثال

العسايد

الطبائع الاربع

طبيعة العبادة ، وطبيعة التفكير ، وطبيعة التعبير الجميل ،
وطبيعة العمل والحركة . . .

هذه طبائع أربع تتفرق في الناس وقلما تجتمع في انسان
واحد على قوة واحدة . فاذا اجتمعت معا فواحدة منهن
تغلب سائرهن لا محالة ، وتلحق الأخريات بها في القوة
والدرجة على شئ من التفاوت

طبيعة العبادة تدعونا الى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة
والتآلف بيننا وبينها : تدعونا الى الحلول من الكون في أسرة
كبيرة

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة في سرائرنا ،
والكشف والاستقصاء : تدعونا الى الحلول من الكون في
معمل كبير

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة في سرائرنا ،
فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها في قوالب
حسنة من صنع قرائحنا والسنتنا، أو صنع قرائحنا وأيدينا،
أو صنع قرائحنا وأوصالنا ، تدعونا الى الحلول من الكون في
متحف كبير

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف نتأثر بدوافع الكون
وكيف نؤثر فيها ، وتجذبنا اليها فنستمد منها القدرة التي
تجذبها اليها : تدعونا الى الحلول من الكون في ميدان صراع
ومضمار سباق

وقلما تشعر بالكون بيتا لأسرة ، ومعملا لباحث ، ومتحف

فن ، ومضمار سباق في وقت واحد . انما هي حالة من هذه الحالات تجب سائر الحالات ، وقد تلحقها بها الحاق التابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الاصيل

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطبائع جميعا على نحو ظاهر في كل طبيعة : كان عابدا ومفكرا وقائلا بليغا وعاملا يغير الدنيا بعمله . ولكنه عليه السلام كان عابدا قبل كل شيء ، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله ، وكل سجية فيه

تهيا للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه . فولد في بيت السدانة والتقوى ، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بأيمانهم ، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه

ونشأ يتيما من طفولته فانطوى على نفسه وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار ، والنظر الى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنيا ، الجائح الى الطهر واستقامة الضمير وتكون في بنيته عابدا من صباه

قيل انه في الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شراح التاريخ في تفسيرها ، ويرووها من سمعوا بها على روايات مختلفات لا ندري ما هو الواقع الصحيح منها ، ويتعجل بعض المؤرخين الأوربيين فيحسبها ضربا من الصرع على غير سند علمي أو تاريخي محقق يستند اليه

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدا قد تكون ليتلقى الوحي الإلهي ، وأن لهذا التكوين استعدادا لا بد أن يلحظ من أوائل صباه ، لأن البنية الحية لن تتهيا له في أيام ولا في شهر ولا في سنوات ، ولن تستطيعه

الا اذا تمت اهبتهأ له والمولود فى صلب ابيه ، ولا نقول فى المهد
أو فى الرضاع

فمن الأقوال المتواترة أنه كان عليه السلام اذا نزل عليه
الوحي نكس رأسه ، وكرب لذلك وتربد وجهه ، وأخذته
البرحاء حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان فى اليوم الشاتى ،
وسمع عند وجهه كدوى النحل ، وقد يصدع فيغلف رأسه
بالحناء ، وقد شاب فقال : « شيبتنى هود وأخواتها » وعدد
حين سئل عن أخواتها سورا أخرى من القرآن الكريم
وليس هذا من خليفة كل بنية انسانية : إنما هو خليفة
البنية التى تتلقى وحيا وتستوعب سرا وتهتز لنبا عظيم

صفة العابد

وكانت أوصافه فى غير حالة الوحي توافق الاستعداد الذى
يرشحه لتلقى الوحي والنبوة . فكان حسا كله وحياة كله .
يراه من ينظر اليه فىرى فؤادا يقظا يتنبه لكل خالجة نفسية
وكل نبأة خفية . يسرع فى مشيته ويلتفت ، فيلتفت بكل
جسمه ، ويشير فيشير بكل كفه ، ويفكر فلا يزال يطرق
الى الأرض أو يرفع بصره الى السماء ، ويدعو فيرفع يديه
حتى يرى بياض ابطيه ، ويفضرب فتحمر عيناه ووجنتاه ،
ويعتلى عرق جبينه وينام وقلبه يقظ لا ينام : حس مرهف
يدنى اليه ما وراء الحجاب ، ويوقظ سريره لاخفى البواطن ،
ويجعله أبدا فى حالة قريبة من حالة الوحي حيثما هبط
الوحي عليه

هذه صفة عابد يفكر ويعبر ويعمل ، وليست بصفة عابد

ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير ، أو يعمل كما يعمل بعض
النسك الذين هزلت بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم إلا عكوف
الصومعة أو رحلة الزهادة

كانت عبادة محمد خلوا بالنفس الى حين ، أو عجباً من
بدائع الكون التي ألفها الناس لأنهم لم يوهب لهم في أبصارهم
وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التي ترى كل شيء كأنه في
خلق جديد

ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت اليوم
أمام عينيه

دهشة لا تعدلها دهشة

وهي هي دهشة العين التي أبت أن تكل من الالفه لانها
أبدا في نظر جديد ، أو في نظر الى كل منظور كأنه مخلوق جديد
وهكذا كانت عبادة محمد عليه السلام : عجب من بدائع
الكون في كل نظرة كأنه يراها لأول مرة ، وتفكير في الخلق
ينتهي الى الايمان لأنه يبدأ بالعجب ، ولا يزال أبدا بين العجب
والايمان

وأن محمدا باعث الايمان الى القلوب . لقد كان يجدد ايمانه
كما يجدد عجبه كل يوم . وكان يدعو الله فيقول : « يا مقلب
القلوب ثبت قلبي على دينك » . . . وقيل له في ذلك فقال :
« انه ليس آدمى الا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله . فمن
شاء أقام ومن شاء أزاغ »

حركة متجددة في الحس وفي الفكر وفي الضمير

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع

ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل الانقطاع

وانما هو تفكير من ينتظره العمل ، وليس بتفكير من ترك

العمل ليوغل في الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك : ثلث
ايامه لربه وثلثها لأهله ، وثلثها لنفسه . وما كان في فراغه
لنفسه ولا لأهله شيء يخرج من معنى عبادة الله والاتصال
بالله ، على نحو من التعميم

بهره الجمال من صباه : جمال الشمس والقمر والنهار
والليل والروض والصحراء ، وجمال الوجوه التي يلمح عليها
الحسن فيطلب عندها الخير . انما هو الخير على كل حال ما قد
طلب من الجمال . وانما جمال الله هو الذي قد كان يدموه
اليه ، كلما نظر الى خلق جميل

فكر في الخلق فأمن بالخالق واستقر هنالك لا يتقدم ولا
يتأخر . فقال : « ان الشيطان يأتي احدكم فيقول : من خلق
السماء ؟ فيقول : الله . فيقول : من خلق الارض ؟ فيقول :
الله . فيقول : من خلق الله ؟ فاذا وجد ذلك احدكم فليقل :
آمنت بالله ورسوله »

تلك هي نهاية التفكير التي ينتهي اليها عقل مستقيم خلق
لعبادة عامل ، وتعليم الناس عبادة وعملا ، ولم يخلق ليوغل
في الفروض ويتقلب بين الشكوك

وانا لنسأل مع هذا : الى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا
في شكوكهم ويطوخوا بها الى قصوى ما تفرضه الفروض ؟
الى أين انتهى « كانت » Kant امام المفكرين في هذا الباب
بين فلاسفة العصر الحديث ، ان لم نقل الحديث والقديم ؟
انتهى الى أن النفس نفسان والوجود وجودان : نفس
حسية ونفس حقيقية . ووجود محسوس ووجود حق هو
ذات الوجود

النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقي عندما ترجع الى

قرارها ، ثم لا تتخطى بأدراكها عالم البساطن الى عالم
المحسوسات التى يتناولها التعبير وتصدير الكلام
اليس معنى هذا أن ايمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق
بالبرهان ؟ وأن المرجع غاية المرجع انما هو الايمان ولا شيء
غير الايمان ؟

بل حتى البرهان الأكبر على وجود الله نعود اليه لنسأله
ونسأل منه فماذا يقول ؟

يقول لنا ان العدم معدوم فالوجود اذن موجود ، وانك
اذا آمنت بالوجود فلا مناص لك من الايمان به فى صفته
المثلئ ، لأنك تحتاج الى مقتضى لفرض النقص ولا تحتاج
الى مقتضى لفرض الكمال فى وجود لا يتطرق اليه العدم
وما الفارق بين الايمان بالله والايمان بالوجود فى صفته
المثلئ ؟

هنا ينتهى الايغال فى الفروض والشكوك
وهناك انتهى الايمان ، بغير ايغال فى فروض ولا شكوك . . .
لا تتلاقى النهايتان ؟ أو لا تضل الفروض والشكوك حيث
تضل ثم لا يخطو لها قدما وراء خطو الايمان ؟

لهذه السنة التى استنها النبى عليه السلام فى عبادته
الروحية كثرت وصاياه بادمان التفكير فى خلق الله واجتناب
التفكير فى ذات الله . فقال فى حديث : « تفكروا فى آلاء الله
ولا تفكروا فى الله » وقال فى هذا المعنى : « تفكروا فى خلق
الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » وقال فى حديث قدسى :
« كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق فعرفت »
أو كما جاء فى رواية : « فخلقت الخلق فبى عرفونى »

طريق الوصول

وخلاصة هذه الأحاديث وما في معناها أن التفكير في حقائق الوجود هو طريق الوصول الى الله ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة : إيمان بالوجود الأبدى في صفته المثلى ، وتفكير في حقائق الوجود كما نراها ونحسها ونعقلها ، وذلك قصارى ما عند العقيدة ، وقصارى ما عند الفلسفة ، وقصارى ما عند العلم إذ يقف العلم عند حده ، وهذا هو العلم الذى فرضه الاسلام على كل مسلم ومسلمة ، وقال النبى فى رواية ابن عباس : « انه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد فى سبيل الله » لانه سبيل الوصول الى الله ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمدا نبى ، وأن النبى يعلم جميع الناس الايمان ، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد . فهم يضلون فى تيه الشكوك والمناقضات التى يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون ، ولا يبلغون الى هداية أقوم وأسلم من هداية الايمان بالخالق والتفكير فى الخليفة . فاما هذه الهداية واما الضلال الذى لا هداية وراءه . وليس لنبى أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال



وقد تكلمنا فى هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التى توحى اليه « عبادته الروحية »

أما عبادة الشعائر الظاهرة فهى عبادة الاسلام كما فرضت

على جميع المسلمين : يصلى النبى ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التى يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب الى نفسه فى هذه العبادات ما ليس يطلبه الى غيره ، على سنة السماحة والتيسير التى أثرت عنه فى كل عمل من أعماله وكل سجية من سجايه

« فكان أخف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه » وربما قام الليل أكثره أو أقله ولا يدين أحدا بالتهجد كما كان يتهجد أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم ، بل قد نهى الناس أن يشتدوا فى العبادة فيصبحوا كالمنبت « لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

لأن الناس جميعا يتلقون الأمر بالعبادة كما يتلقون الأمر بفريضة واجبة ، فهم فى حاجة الى الرفق والتيسير أما النفس المفطورة على العبادة فالصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء ، ومطاوعة ليل الضمير وميل الجوارح على السواء

وكان محمد « اذا حزبه أمر صلى » كذلك اذا حزب الأمر نفسا رجعت الى من تحب فخف وقرها وانفرج كربها ، وأنست بعد وحشة واهتدت بعد حيرة ومتى وجدت النفس « فرحة اللقاء » فى الصلاة فلا اجهاد فيها لجسد ولا تضيق فيها لوقت ، بل فيها الترويح عن الجهد والتنفيس عن الضيق ، ولا سيما اذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيى ما تحيى من ليلا ونهارها فى الصلاة والعبادة ثم تؤدى عملها وتفكر تفكيرها ، ولا يحسب أحد يعرفها أنها تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها ، أو عن حق من حقوق بنى الانسان

الرجل

المختار

عاش في العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت
الأنباء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة في الصور
والتماثيل . غير أننا لا نعرف أحدا من هؤلاء العظماء تمت
صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد عليه
السلام من رواية أصحابه ومعاصريه ، فنحن نعرفه بالوصف
خيرا من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التي
نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة ، لأن هذه الصور والتماثيل
قد تحكى للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة ، وقد
تحكى للمتفرسين شيئا من طبائعهم التي تنم عليها سيماهم ،
إلا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف
النبي في كل حالة من حالاته وكل لحظة من لحاته : في سيماءه
وفي هندامه ، وفي شرابه وطعامه ، وصلاته وصيامه ، وحله
ومقامه ، وسكوته وكلامه ، لأن الذين وصفوه أحياه وأحبوا
أن يقتدوا به فتخرجوا في وصفه كما يتخرج المرء في الاقتداء
بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة ، فكانت أمانة
الوصف هنا مزيجا من العطف والتدين ، وضربا من اتباع
السنن وقضاء الفروض ، لم يختلف الوصف مرة إلا كما
تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى .
فيقول غير ما قال آنفائهم لا يبدو التناقض ولا قصد
التحريف بين القولين

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة أن النبي عليه
السلام كان مثالا نادرا لجمال الرجولة العربية ، كان كشأنه

في جميع شمائله مستوفيا لصفة من جميع نواحيها . قرب
رجل وسيم غير محبوب ، ورب رجل وسيم محبوب غير
مهييب ، ورب رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو لا يحب
الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء ، أما محمد
عليه السلام فقد استوفى شمائل الوسامة والمحبة والمهابة
والعطف على الناس . فكان على ما يختاره وأصفوه ومحبوه ،
وكان نعم المسمى بالمختار .

إذا نظر إليه الناظر رأى رجلا أزهر اللون ، عظيم الهامة ،
مفاض الجبين ، سبط الشعر ، أزج الحاجبين بينهما عرق
يدره الغضب . أدعج العينين في كحل ، أقنى الأنف يحسبه
من لم يتأمله أشم العرنيين ، أسيل الخد ، ضليع الفم ، غزير
اللحية ، جميل الجيد ، عريض الصدر ، واسع ما بين المنكبين ،
ضخم الكراديس ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن
الكفين والقدمين ، لا بالمشذب ولا بالقصير ، مربوعا أو أطول
من المربوع ، معتدل الخلق متماسكا لا بالبدن ولا بالنحيل

وإذا أقبل يتحرك نظر إليه الناظر فرأى رجلا يصفه
الأقدمون بأنه « حي القلب » ويصفه المحدثون « بالحركة
الحوية » .

يمشي فكأنما ينحدر من جبل وينحط من صيب ، ويرفع
قدمه فيرفعها ثقلا كأنما ينشط بجملته جسمه ، ويلتفت
فيلتفت كله ، ويشير فيشير بكفه كلها ، ويتحدث فيقارب
يده اليمنى من اليسرى ويضرب بإبهام اليمنى راحة اليسرى ،
ويفتح الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه ، وربما حرك رأسه
وعض شفته في أثناء كلامه . وهو على هذه الحركة الحية جم

الحياء : أشد حياء من العذراء ، نضاح المحيا اذا كره شيئا عرف ذلك في وجهه واذا رضى تطلعت أساريره وتبين رضاه واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء في هذه البنية الجميلة . . . فكان عليه السلام يصرع الرجل القوي ، ويركب الفرس عاريا فيروضه على السير ، ويداعب من يحب بالمسابقة في العدو . قالت عائشة رضى الله عنها : « خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك . فسابقته فسبقته ، فسكت

» حتى اذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال تعالى أسابقك فسابقته فسبقني . فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك ! «

وهذا بعد ان قارب الستين . انها لمسابقة تنم على فتوة الروح فوق ما نمت عليه من فتوة الأوصال

وتجلت هذه الأريحية في علاقته بكل انسان من خاصة اهله أو من عامة صحبه . فرقت حاشية جده حتى عطفت على كل أسي ، ورحمت كل ضعف ، وامتزجت بكل شعور

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « دخل النبي صلى الله عليه وسلم على أمي فوجد أخى أبا عمير حزينا . فقال يا أم سليم ! ما بال أبى عمر حزينا ؟ فقالت يا رسول الله : مات نغيره . تعنى طيرا كان يلعب به . فقال صلى الله عليه وسلم : أبا عمير ! ما فعل النغير ؟ وكان كلما رآه قال له ذلك «

وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت اليها ، فالسيد يزور خادمه في بيته . ويسأل أمه عن حزن أخيه ، ويواسيه في موت طائر ، ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه

ومثل هذا عطفه على الضعف البشري في رجل مثل عبد الله الخمار الذي لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة ، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يحده في الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه

قبوله للدعابة

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة ، لا يقل منها أحدا ولا يراه النبي فيتمالك أن يتسم . وربما قصد النبي ببعض هذه الدعابات لطمعه في حلمه وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه : جاء أعرابي الى رسول الله فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائها ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : « لو نحررتها فأكلناها ؟ فانا قد قرمنا الى اللحم ، ويفرم النبي صلى الله عليه وسلم حقها » فنحرها نعيمان . وخرج الأعرابي قرأى راحلته فصاح : « واعقراه يا محمد ! . . » فخرج النبي يسأل : « من فعل هذا ؟ » قالوا : « نعيمان » . . . فاتبعه النبي حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد . فأشار اليه رجل ورفع صوته : « ما رأيته يا رسول الله » وهو يشير بأصبعه الى حيث هو ، فأخرجه رسول الله وقد تعفر وجهه بالتراب فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال : « الدين دلوك

على يا رسول الله هم الذين أمروني ؟ » فجعل رسول الله
يمسح عن وجهه التراب ويضحك . ثم غرم ثمن الراحلة . . .
ونعيمان هذا هو الذي باع عاملا لأبي بكر الصديق وهو
يعلم أن النبأ واصل إلى النبي لا محالة



سافر أبو بكر إلى بصرى تاجرا ومعه نعيمان وبسويط بن
حرملة عامله على زاده . فجاءه نعيمان وطلب إليه طعاما
فأباه عليه حتى يأتي أبو بكر . فأقسم نعيمان ليفيظنه .
وذهب إلى قوم فقال لهم : « تشترون مني عبدا لى ؟ »
قالوا : « نعم ! » قال : « انه عبد له كلام ، وهو قائل لكم :
لست بعبد . أنا رجل حر . . . إلى أشباه ذلك . فان كان
إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدوا على
عبدى . . . » قالوا : « لا . بل نشتريه ولا ننظر في قوله »
فاشتروه منه بعشر قلائص ، ثم أراهم أياه فوضعوا عمامته
في عنقه ولم يحفلوا بقوله ، وجعلوا كلما قال لهم : « أنا حر !
انه يتهزا ولست أنا بعبد » سخروا منه وقالوا : بل عرفنا
خبرك فدع عنك اللجاجة فلما جاء أبو بكر سأل عنه
فقص عليه نعيمان قصته ، وذهبوا جميعا ليلحقوا بالقوم
فيقتدوه ويعيدوه

ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعلة نعيمان وجعل
يذكرها حولا كاملا كلما رآه

من سعة النفس أن ينهض الرجل بعظائم الأمور بل بأعظمها
جدا ووقارا وهو إقامة الأديان وإصلاح الأمم وتحصيل

مجرى التاريخ ثم يطيب نفسا للفكاهة ويطيب عطفًا على المتفكّهين ، ويشركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ . فللجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا الجانب اللطيف من جوانب الحياة ، ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق الا دلت على شيء من ضيق الحظيرة ونقص المزايا وان نهضت بالعظيم من الأعمال

فاستراحة محمد الى الفكاهة هي مقياس تلك الآفاق النفسية الواسعة التي شملت كل ناحية من نواحي العاطفة الانسانية ، وهي المقياس الذي يبدى من العظمة ما يبدىه الجد في أعظم الأعمال

وكان محمد يتفكه ويمزح كما كان يستريح الى الفكاهة والمزاح ، وكان دأبه في ذلك كدأبه في جميع مزاياه : يعطى كل مزية حقها ولا يأخذ لها من حق غيرها ، أو يعطى الفكاهة حقها ولا ينقص بذلك من حق الصدق والمروءة . فعبد الله الخمار كان يجد من قلب النبي عطف القلب الكبير على نقيصة الضعف في الرجل السكير ، ولكنه كان يجد من تأديب النبي جزاء الشارب الذي يخالف الدين ويخل ثماديه بالشرعية . عطف يجمال بالنبي على أحسن ما يكون ، لأنه يجمال بالانسان على أفضل ما يكون

واذا مزح محمد فانما كان يعطى الرضى والبشاشة حقهما ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة . فكان مزاجه آية من آيات النبوة لأنه كان كذلك آية من آيات الانسانية ، ولم يكن بالنقيض الذي يستغرب من نبي كريم

قال لعمته صفية : لا تدخل الجنة عجوز ! فبكت . فقال لها وهو يضحك : الله تعالى يقول : « انا انشاناهن انشاء

فجعلنساهن أبكارا عربا أترابا « ففهمت ما أراد
وثابت الى الرضى والرجاء .

وطلب اليه بعضهم أن يحمله على بغير . فوعده أن يحمله
على ولد الناقة . فقال يا رسول الله ! ما أصنع بولد الناقة !
فقال : وهل تلد الابل الا الثوق ؟

وكان عليه السلام يقول لجاضته السوداء أم أيمن وهى
عجوز : غطى قناعك يا أم أيمن ! «

وسمعتها فى يوم حنين تنادى بكنيتها الأعجمية : « سبت
الله أقدامكم ! » فلم تنسه الغزوة القائمة أن يصفى اليها
ويداعبها بين نذر الحرب وصيل السيف ، وأقبل عليها
يقول : « اسكتى يا أم أيمن فانك عسراء اللسان ! » فكانت
هذه الدعابة فى ذلك الموقف المرهوب كأنها تربيت سيد
الفصحاء على تلك اللكنة البريئة

أريحية محمد

هذه الأريحية الفيضة هى الحلية الباطنة التى تمت بها
حلية محمد فى عيون الناس ، وهى جواب محمد لما كان له فى
قلوبهم من حب واعظام ، أو هى الأصرة التى تجمع بين قلبه
وتلك القلوب فى نطاق الأسرة الانسانية : يحبونه ويحبهم
ويشعرون به ويشعر بهم ، وليس قصارى الأمر أنه وسيم
وأنه محبوب وأنه مهيب

سميت يقابل العيون بجمال

وأريحية تقابل النفوس بجمال

وقد سرت هذه الأريحية في صميم طويته . فامتزجت
طواعية وارتجالا بجميع خصاله وجميع علاقاته بالناس
ولا سيما الضعفاء والمكسورين . فكان أحرص انسان على
جبر القلوب وتطبيب الخواطر وتوخي المؤاساة واجتناب
الاساءة ، يتفقد أصحابه كبارا وصغارا ويسأل عنهم ،
ويتحدث الى ذوى الأقدار وعامة الناس فلا يحسب صغيرهم
أن أحدا أكرم عليه منه ، ويتحدث اليه من شاء فلا يقطع
عليه حديثه وان طال . واذا انتهى الى قوم جلس حيث
ينتهى به المجلس ، ومن جالسه صابره حتى يكون هو
المنصرف ، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذ هو
الذى يرسلها

ومن سننه التى اتبعها وأوصى باتباعها أن يجيب دعوة
من دعاه ولا يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير ، وفي
ذلك يقول من وصاياه فى آداب الولا ئم والمخافل أ « اذا اجتمع
الداعيان فأجب أقربهما بابا ، فان أقربهما بابا أقربهما جوارا ،
وان سبق أحدهما فأجب الذى سبق »

يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه .
وربما تخفف صلاته اذا جاءه أحد وهو يصلى ليسأله عن
حاجته ويلقاه بالتحية

يتقى الغضب جهده ويعالجه اذا أحس به بعلاج من الروح
فيقبل على الصلاة والتسبيح ، أو بعلاج من الجسد فيجلس
اذا كان قائما ويضطجع اذا كان جالسا ، ويأبى الحركة التى
ينزع اليها وهو غضبان

آدابہ الاجتماعیہ

وكان في آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المہذب في كل زمان . فلم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه ، وتعود كلما زار أحداً ألا يقوم حتى يستأذنه ، ولم يكن ينفخ في طعام ولا شراب ولا يتنفس في أناء ، وإذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه ، وربما نهض بالليل فيشوص فاه بالسواك ، ولا يزال يستاك ويوصى بالاستيأك بعد الطعام واليقظ من النوم ، وكان يتطيب ويتحرى النظافة ويقول لصاحبه « اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأساً بدينار »

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل في شئون عرضية لا تتصل بلباب الذوق والشعور . فيأكلون في جيل بأصابع اليد ويأكلون في الجيل الآخر بالشوكة والسكين ، ويخرج أناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض . وهي عرضيات يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطباع ، فلاضير على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل . وإنما الضير فيما يتناول الطبع السليم والذوق الحسن وهما الخصلتان اللتان كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مہذب في كل أمة وفي كل زمان . فلم يكن يهفو في حق أحد . ولم يكن أحد يشكو من محضره بأنصاف ، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل في أصدق معانيه

صاحب هذا السميت رسول

وصاحب هذه الآداب رسول

وخلصه سمته وآدابه أنها سماحة في الأنظار وسماحة في القلوب . فالسماحة هي الكلمة الواحدة التي تجمع هذه الخصال من أطرافها ، والسماحة هي الصفة التي ترقى في محمد إلى ذروة الكمال

ومن يكون الرسول ان كان لا بد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة ؟ الرسول هو الذي له وازع من نفسه في الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات الناس ، لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس وازعا يأمرهم بالحسن وينهأهم عن القبيح ويقرر لهم حدودهم التي لا يتخطونها فيما بينهم ، ومن كان هذا عمله الأول فينبغي أن تكون صفته الأولى - بل صفته الكبرى - أن يستغنى عن الوازع وأن يغنى الناس عن محاسبته وطلب الحق منه . وهذه هي السليقة الشاملة التي سرت في خلأق محمد وامتزجت بجميع أعماله وأقواله فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه في رعاية حق الصغير والكبير ، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول ، لأنها علامة من داخل السريرة . وليست علامة من خارجها قد تلازم أو تفارق من تعرفوه

وليس للنوع البشرى مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل

يعطيه هذه المرتبة من يدين بالاسلام ومن يدين بغير الاسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل

فليس للنوع البشرى أضل من أصول الفضائل يرمى إلى مقصد أسمى وأنبل من تقديس تلك المناقب التي كان محمد قدوة فيها للمقتدين

عزيمۃ الزهد والايمان

وليس أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويزهد
في نعمة العيش وهي بين يديه

فقد ثبت أن محمدا لم يستمتع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام
تباعا حتى مضى لسبيله ، وقالت عائشة رضي الله عنها : « لقد
كنت أبكي رحمة له مما أرى به وأمسح بيدي على بطنه مما
أرى به من الجوع وأقول : نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا
بقوتك » فيقول : « يا عائشة ! مالي وللدنيا . . . اخواني من
أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا »

وقالت زوجته أم سلمة تصف ما وجدته في بيته ليلة
عرسها « . . . فاذا جرة فيها شيء من شعر ، وإذا رحي
وبرمة وقدر وكعب فأخذت ذلك الشعر فطحنته ثم عصده
في البرمة ، وأخذت الكعب فأدمته ، فكان ذلك طعام رسول
الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه ! »

رآه عمر وقد أثر في جنبه حصير فقال له : « يا رسول الله !
قد أثر في جنبك زمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع
عليهم وهم لا يعبدون الله » فاستوى جالسا وقال : « أفي
شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم
في الحياة الدنيا ! »

ولقد مات ودرعه مرهونة ، ولا ميراث لأهله مما ترك من
عقار ، وهو قليل
فما عسى أن يقول قائل في قدر هذا الرجل - آمن به أو
لم يؤمن ؟

ايقول انه رسول وانه كان يعلم انه رسول فصدع بأمر
ربه واحتمل ما احتمل في سبيل طاعته وفي سبيل اصلاح
خلقه ؟

تلك اذن منزلة الانبياء التي تستوجب له مقام اصفياء الله
عند من يؤمن بالله ؟

ام ينكر النبوات ويقول انه رجل اراد الخير وهو لا يعلم
انه رسول ولا ان الله مطالبه برسالته الى خلقه ، ولكنه تجرد
لهدايتهم في غير مأرب يناله ولا نعمة ينعم بها لانه لا يطيق لهم
شرا ولا ينتظر في الدنيا ولا الآخرة من جزاء ؟

من قال هذا وغض من قدر رجل يحب الناس ذلك الحب
ويغار على هدايتهم تلك الغيرة فهو انسان ممسوخ الضمير



فمحمد الرجل في المقام الاول بين الرجال : في المقام الاول
بخلقته ، وفي المقام الاول بنيتة ، وفي المقام الاول بعمله ، وفي
المقام الاول بالقياس الى المشبهين له في دعوته

ونرى عن يقين انه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان الاستزادة
لاسباب الايمان وشحذا للعزيمة في سبيل ذلك الايمان ، واعذارا
الى الله والى الناس فيما تجرد له من اصلاح

لان محمدا لم يكن كارها لطيبات الدنيا ولا حاضا لاحد على
كراهتها والاعراض عنها ، فاذا قنع بما قنع فانما فعل ذلك
ليرتفع بايمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره . . . كانه يخشى
اذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له ان يحسب تلك الحظوظ

غرضا من الأغراض التى نظر اليها حين نظر الى هداية الناس
فليكن الايمان اذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء . . .
وتلك راحة ضميره ، ومن وراء راحة ضميره ان يظفر الناس
بجهده كله فى هدايتهم غير منقوص ولا مزنون
اذا هدى الناس واستمتع بالعيش خشى أن يحسب المتعة
من آماله

واذا هدى الناس وكفى كانت الهداية هى جملة الآمال
وغاية الآمال . . . فلينقص حظه من العيش ليكمل حظه
وحفظ امته من ايمانه ، وليتم بذلك حسابه لنفسه وحسابه
عند الله وحسابه بين الناس

وما حساب أولئك جميعا ؟
حساب رجل هو وأزع نفسه فى السر والعلانية ، وهو
أحق الناس أن يقيم وأزعا للناس
رجل لا كمثله الرجال

محدث فی التاریخ

اتصال التاريخ بمحمد

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمداً في عبقريته ،
أو محمداً في نفسه ، أو محمداً في مناقبه التي يتفق على
تعظيمها من يدين برسالة الدين ، ومن لا يدين له برسالة
و نريد بهذا الفصل - وهو خاتمة الكتاب - أن نذكر
كلمة موجزة عن محمد في التاريخ ، أو محمد في العالم
وأحداثه الخالدة . وهو بحث يغنينا فيه الإيجاز ، لأن
العالم كله صفحات تنبئنا بمكان محمد فيه

محمد في نفسه عظيم بالغ في العظمة ، وفاقا لكل مقياس
صحيح يقاس به العظيم عند بني الإنسان في عصور الحضارة
فما مكان هذه العظمة في التاريخ ؟ ما مكانها في العالم
وأحداثه الباقية على تعاقب العصور ؟

مكانها في التاريخ أن التاريخ كله بعد محمد متصل به
مرهون بعمله ، وأن حادثاً واحداً من أحداثه الباقية لم يكن
ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله

فلا فتوح الشرق والغرب ، ولا حركات أوربا في العصور
الوسطى ، ولا الحروب الصليبية ، ولا نهضة العلوم بعد
تلك الحروب ، ولا كشف القارة الأمريكية ، ولا مساجلة
الصراع بين الأوربيين والأسويين والأفريقيين ، ولا الثورة
الفرنسية وما تلاها من ثورات ، ولا الحرب العظمى التي
شهدناها قبل بضع وعشرين سنة ، ولا الحرب الحاضرة التي
نشهدها في هذه الأيام ، ولا حادثة قومية أو عالمية مما
يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة في الدنيا كما وقعت لولا

ذلك اليتيم الذى ولد فى شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة
واحدى وسبعين سنة من مولد المسيح

كان التاريخ شيئاً فأصبح شيئاً آخر ، توسط بينهما
وليد مستهل فى مهده بتلك الصيحات التى سمعت فى
المهود عداد من هبط من الأرحام الى هذه الغبراء

ما أضعفها يومئذ صيحات فى الهواء

ما أقواها بعد ذلك أثراً فى دوافع التاريخ

ما أضخم المعجزة • وما أولانا أن نوّمن بها كلما مضت
على ذلك المولد أجيال وأجيال ، وما أغنانا أن نبحت عنها
قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون
على أننا نستعظم الأحداث العظام فى تاريخ بنى الانسان
بمقدار ما فيها من فتوح الروح ، لا بمقدار ما فيها من فتوح
البلدان

فتوح إيمان

وجائز. أن يقع فى الدنيا طوفان أو زلزال فيتصل به من
أحداث الزخوف والفتوح ما يبدل فى التاريخ ، ويبتعث
دوافع الشعوب

أما غير الجائز فهو أن تنفتح للانسان آفاق جديدة من
عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحىها الايمان ، وبغير رسالة
باطنية تسبق هذه الظواهر التى تهول الأنظار

ولقد فتح الاسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح فى كل قلب
من قلوب أتباعه عالماً مغلقاً تحيط به الظلمات ، فلم يزد

الأرض بما استولى عليه من أقطارها فإن الأرض لا تزيد
بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم ، ولكنه
زاد الانسان أطيب زيادة يدركها فى هذه الحياة ، فارتفع به
مرتبة فوق طباق الحيوان السائم ، ودنا به مرتبة الى الله
يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقة فى عالم الضمير .
فمن أنكرها فانما ينكر تقدم الانسان كثيرا أو قليلا فى هذه
الطريق

عقد عالم أوربى (١) مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح
فسأل : « أليس محمد نبيا على وجه من الوجوه ؟ » ثم أجاب
قائلا : « إنه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل
الأنبياء : فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من
حوله ، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك
الحقيقة ، وأنه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر
الأنبياء شجاعة وبطولة بين بنى اسرائيل ، لأنه جازف
بحياته فى سبيل الحق ، وصبر على الايذاء يوما بعد يوم عدة
سنين ، وقابل النفى والحرمان والضعفينة ، وفقد مودة
الأصحاب بغير مبالاة . فصابر على الجملة قصارى ما يصبر
عليه انسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة ، ودأب مع
هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على اسبكاتة وعد ولا
وعيد ولا اغراء وربما اهتدى الى التوحيد
أناس آخرون بين عباد الأوثان ، الا أن أحدا آخر غير محمد
لم يقم فى العالم مثل ما أقام من ايمان بالوحدانية دائم مكين،

(١) الدكتور ماركس دودز فى كتابه محمد وبوذا والمسيح

Mohammed, Buddha and Christ, by Dr Marcus Dodds.

وما أتيج له ذلك الا لمضياء عزمه أن يحمل الآخرين على
الايان . فاذا سأل سائل : ما الذى دفع بمحمد الى اقناع
غيره حيث رضى الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا مناص لنا أن
نسلم أنه هو العمق والقوة فى ايمانه بصدق ما دعا اليه «
والحقيقة التى يراها المنصف مسلما كان أو غير مسلم هى
هذه الحقيقة :

هى أن فتوح محمد فتوح ايمان ، وأن قوة محمد قوة ايمان ،
وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من
تعليل لها. أصدق من هذا التعليل

لقد جاء الاغراء الذى أشار اليه العالم الأوربى وهو
داع مهدد فى سربه ، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين
بدعوته ، فما حفل بالاغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل
به وهو واصل اليه

جاءه سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو فى مبدأ أمره فقال
له واعدنا ملاطفا بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين : « يا ابن
أخى ، انك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا ،
وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت
أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ،
فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا
بعضها . فقال عليه السلام : قل يا أبا الوليد . فقال :
يا ابن أخى ! ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا
جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد
شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت
تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان الذى يأتيك رثيا من

الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه
أموالنا حتى نبرئك منه ،

فما زاد عليه السلام على أن أجابه بآيات من القرآن
الكريم ثم تركه يعود كما أتى

ثم أدرك النبي غاية ما سعى اليه فلم يدخل له المال ولا
المتاع في حساب ، ولم يكن النعيم المستطاع أفعل في
اغرائه من النعيم الموعود ، بل كان النعيم المستطاع فوق
ما حلم به عتبة بن ربيعة ، وكان النبي أزهد فيه من زهده
في النعيم الموعود . . . فلم يكن في سبيل الايمان ؟ وأي
نبي له من الايمان شفاعة أكبر من هذه الشفاعة ورسالة
أكبر من هذه الرسالة ؟ وأي انسان يعرف تعظيم الأنبياء
ان لم تظهر نبوة محمد عنده بالتعظيم ؟

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد وشائئيه : حكمه
أنفذ من حكم الشائئين والأصدقاء ، وأنفذ من حكم المشركين
والموحدين ، وأنفذ من حكم المتدينين والملحدين . . . لأنه
حكم الله

وقد حكم له أنه كان في نفسه قدوة المهذبين ، وكان في
عمله أعظم الرجال أثرا في الدنيا ، وكان في عقيدته مؤمنا
يبعث الايمان ، وصاحب دين يبقى ما بقيت في الأرض أديان
وسيطلع في الأفق هلال ويغيب هلال ، وسيذهب في
الليل قمر ويعود قمر ، وتتعاقب هذه الشهور التي كأنها
جعلت لتاريخ ما بين الصدور ، لأن الناس لا يؤرخون بها
مواسم الزرع ولا مواعيد الأشغال ولا أدوار الدواوين

والحكومات ، ولا ينتظرونها الا هداية مع الظلام وسكينة مع الليل : أشبه شيء بهداية العقيدة فى غياهب الضمير

التاريخ الهجرى

ستطلع الأقمار بعد الأقمار ، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية ، وكأنها تقبل بعلم من معالم السماء يومىء الى بقعة من الأرض هى غار الهجرة • أو يومىء الى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد ، لأنه أدل الأيام على رسالته ، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريره ، وهو يوم التقويم الذى اختاره المسلمون بالهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ فى الاسلام ، ولم يكن يوم الدعوة ؟

ولم لم يكن يوم بدر أو يوم ولادة النبى أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ ؟

كل يوم من هذه الأيام كان فى ظاهر الرأى وعاجل النظر أولى بالتاريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة فى جنح الظلام

فالرجل الذى اختار يوم الهجرة بدءا لتاريخ الاسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والايمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه

لأن العقائد انما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب: كل انسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة • أما النفس التى تعتقد حقا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا

فهى النفس التى تؤمن فى الشبهة وتعتقد ومن حولها
صنوف البلاء

وليس يوم أحق بالتاريخ اذا من اليوم الذى هجر فيه
النبي بلده . . . » اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، اذ
هما فى الغار ، اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ،
فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة
الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم »
ليقل من قال ان التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان
توقيتا معروفا على عهد النبي عليه السلام

وليقل من قال ان دخول المدينة هو المقصود بالتاريخ من
الهجرة ، وهو يوم عظيم

ليقل من قال هذا أو ذاك فان تاريخ النصر فى القرآن
ظاهر » اذ هو ثانى اثنين فى الغار »

وان ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد - سواء كان هو
المقترح أو مجيب الاقتراح - حين نظر الى غار « ثور » ولم
ينظر فى التاريخ الى نصر المدينة ولا الى نصر بدر ولا الى
نصر أحد ولا الى نصر فارس ، ونظر الى تلك « الجنود التى لم
تروها » وقد نراها نحن الآن

يوم الدعوة لم يكن يوم الاسلام الأول ، لأن الدعوة كلمة
يستطيعها كل انسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو
كثير

ويوم ميلاد النبي لم يكن يوم الاسلام الأول ، لأن ميلاد
محمد لم يكن معجزة الاسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة
المسيحية ، ولأن محمدا بشر مثلنا فى مولده ولكنه سيد

الرسـل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة الى حيث تنجو وحيث
تسود ، وحيث يكون امتحانها الاول فى قلب صاحبها
وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان فى غار .

كذلك تؤرخ العقائد والاديان : بالشدة تاريخها وليس
بالغنائم والفتوح ، وانها لشيء فى القلوب فلنعرفها اذن حين
لا تكون الا فى القلوب ، وحين يكون كل شيء ظاهراً كأنه
ينكرها وينفى وجودها وهى يومئذ من الوجود فى الصميم .

يوم عقيدة ورجاء

ان يوم الغار ليوم له عبرته وعزاؤه فى كل يوم ولاسيما
أيام القلق والحيرة والانتظار

انه يوم عقيدة فهو يوم رجاء ويوم نظر الى المستقبل الذى
ينظر اليه من ليس له رضى فى حاضر عهده . وحاضر العالم
فى عهده لا يرضى أحداً من محبيه

حيثما غلبت الحيرة والقلق فى العالم فهناك أمر واحد
كن منه على أتم اليقين . كن على يقين أن العالم يبحث عن
عقيدة روحية !

لأنه يضيق بالحاضر وينظر الى المستقبل ، وكل مستقبل
فلا محل له من جوانح الصدور ان لم يكن موضع رجاء ومرجع
إيمان ، وغاية سعى يستحق الكفاح

وفى التاريخ الانسانى كله لم تقم قط حركة عظيمة على
الماضى الذى لا مستقبل بعده ، انما تقوم الحركات العظمى
جميعاً على الرجاء فى غد محبوب ، أو على شيء يبدن أن يتحقق

فى حياة الانسان ، شىء يبقى أبدا موضع الرجاء البعيد
لقد كان على فتى يستقبل الدنيا وكان أبو بكر كهلا يدبر
عنها يوم أعانا محمدا فى يوم حراء
ولكنهما كانا معا على أبواب غد واحد ورجاء واحد ،
يستوى فيه الفتى والكهل والشيخ الدالف الى قبره ، لأنه
رجاء الايمان لا رجاء العيان

المستقبل للايمان

ماذا فتح الاسلام لأبى بكر من عوالم الحياة ؟ هل رجع
به الى الماضى أو أقبل به على المستقبل ؟ هل مشى به فى
حركة الى أمام أو قفل به فى رجعة الى وراء ؟ الحق أن الاسلام
مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل المستقبل للشباب ،
وانفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء ،
وكان يفتح أمام أبى بكر - وليس أمام على وحده - باب
الحياة الصالحة فى الدنيا وباب الحياة الخالدة فى الآخرة . . .
وهكذا كل عقيدة فما هى بعقيدة على أى معنى من معانى
الاعتقاد ان كان خيرها كله شيئا يناله الانسان فى أيامه . . .
فلا مناص فى العقيدة من خير وراء أيام الفناء

ليذكر هذا جميعه من يتحفزون للنهوض ، ومن يبتغون
الحركة ، ويقودون الخطوات المقبلة فى عجلة أو أناة

لن تتحرك أمة الا اذا فتحت أمامها باب المستقبل ، ولن
تلتفت الى الماضى الا اذا كان فيه التقاء بالمستقبل ، ولن

تعيّره الحياة الا وهو مبعوث من جديد فى صورة الخلق الجديد
ليذكر هذا من يحارون فى أمر العالم اليوم وهو غارق
فى دماثه ، ضائق بحاضره ، معرض عن ماضيه

فيم يحار ؟

فى طلب المستقبل ، فى طلب العقيدة ، فى طلب المسوغ
للوجود ، لأن الوجود وحده لا يكفى الانسان الا أن يكون
على طبقة مع الحيوان

فالايان للمستقبل

وعسى أن يكون المستقبل للايمان

وعسى أن يستجد العالم عزاء باقيا من يوم الغار ومن
صاحب يوم « الغار »

فهرس

صفحة	
٥	هذه الطبعة الجديدة
٩	مقدمة
١٧	علامات مولد
٢٧	عبقرية الداعى
٣٩	عبقرية محمد العسكرية
٧٥	» » السياسية
٨٥	» » الادارية
٩٣	محمد البليغ
١٠٩	» الصديق
١٢١	» الرئيس
١٢٧	الزوج .
١٦٣	الاب
١٧٧	السيد
١٨٧	العابد
١٩٧	الرجل
٢١٣	محمد فى التاريخ

وكلاء مجلات دار النهضة

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه - السور - العسيلي
المدخل الشمالى ' ص ' ب ٥٤٣ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعسانى

حمص : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعى - ص ٥٩٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس - ص ٩٧

بغداد والعراق : السيد محمد جواد حيدر - مكتبة المعارف -
بسوق السراى - بغداد

البحرين والخليج
الفاىسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد - مكتبة المؤيد -
البحرين

البرازيل : Snr. Rachid S. Cury, Caixa postal 1812
Sao Paulo -- Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

المغرب : Mr. Abdella B.M. Assoub, B.P. 156
Aquad Ahardan No. 18, Tanger, Maroc.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

« عبقرية محمد » هو أول كتاب من « سلسلة كتاب الهلال » . . . ولعلك أيها القارئ تسأل : لماذا أصدرنا هذه السلسلة . ثم ما هو نوع الكتب التي سنقدمها لك كل شهر ، ولماذا بدأنا بهذا الكتاب ؟

لقد كان شعار دار الهلال - ولا زال - رفع المستوى الثقافي بين قراء العربية على أوسع نطاق ، فسعت منذ نحو ستين سنة إلى تيسير المعارف لأكثر عدد من القراء ، لأن الثقافة من حق جميع الطبقات - لا من حق الطبقة القادرة وحدها - ولهذا رأيت أن تصدر هذه السلسلة لتتيح للجميع أن يقرأوا أنفسهم المؤلفات بثمن زهيد . . !

أما نوع الكتب التي نختارها ، فهو على الإجمال كل ما توافرت فيه أجادة الموضوع ، ومتعة الأسلوب . وبعضها مؤلف ، والبعض مترجم لمشاهير الكتاب

وكان اختيارنا لكتاب عبقرية محمد على هذه النحو فهو عن شخصية عظيمة يدين بدينها الملايين في الأرض . وقد حلل المؤلف حياة هذا النبي الـ وتناول عبقريته بالمقدار الذي يدين به كل إنسان وبالحق الذي يعتقده المسلم وغير المسلم

